في سورة الملك ـ دراسة بلاغية تحليلية ـ

أحمد فتحي رمضان

كلية الاداب / قسم اللغة العربية

مدرس مساعد

توطئة

إن تفرد النص القرآني في أسلوبه وبنيانه الجمالي والبلاغي من الحقائق الخالدة التي تستغني بنفسها عن إقامة الدليل ، فهو نسيج وحده في تراكيبه ومعانيه وأسراره البلاغية ... وقد صيغت تلك التراكيب القرآنية من الأداة نفسها (اللغة) المستعملة عند العرب ، ومع ذلك فإن التراكيب القرآنية انفردت وتميزت في خصائصها التعبيرية والتصويرية عن أي عبارة اوتركيب آخر ، فهي قد بنيت « بطريقة مفردة خارجة عن العادة لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة» (١) من طرق التعبير البياني الأصيل .

وانطلاقاً من هذه الحقيقة ، فإن البحث محاولة لتلمس أسرار البيان العربي في القرآن الكريم بوصفه نصاً أعلى في البلاغة والفن والجمال التعبيري ، فلا يصح لنا ذوق البلاغة بمعزل عنه . ومثلما تلتمس أسرار البيان العربي في شعر الشعراء ، ونثر البلغاء ؛ فمن الأولى أن نتلمسها في القرآن الكريم وإذا كنا قد عرفنا البلاغة علماً وثقفناها صناعة ولفظاً ، فإننا ـ وعلى حد قول بنت الشاطيء ـ مانزال في أشد الحاجة إلى أن نجتليها ذوقاً أصيلا وحساً مرهفاً في آيات الفصاحة العليا والبيان المعجز» (٢) .

والبحث إذ يحاول تلمس أسرار البيان العربي في القرآن ، فإنه لايتلمسها إلا في الجانب البلاغي ، في سورة واحدة ـ موضوع البحث ـ هي :(سورة الملك) ، لأن أسرار القرآن لاتنحصر في الجانب البلاغي ـ كما هو

(١) النكت في إعجاز القرآن ، للرماني ، ص ١١١ .

(٢) الإعجاز البياني للقرآن ، د. عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطيء ـ ، ص ٢٢١ .

معلوم – وإنما أسراره تتعدى ذلك إلى كثير من الجوانب التي لا تخضع الى حصر او تحديد

والجانب البلاغي الذي سيعنى به البحث سيجتلى من خلال الوقوف على الظواهر البلاغية التي تشكلت في نسيج آيات السورة الكريمة ، إذ أن هذه الظواهر البلاغية المتنوعة التي انتظمت في السورة هي ليست تجريدية تراد لذاتها ، وإنما هي تحتضن الأفكار والمعاني على نحو متناغم ، تبدو الأفكار والمعاني من خلالها ذات ايحاء وحيوية وقوة تأثير ، فهي جزء من بناء نص معجز له أهدافه الفكرية والنفسية والجمالية ، ويسعى إلى التوجيه والتسديد وبث أسمى الأفكار الإنسانية وأعلاها مرتبة .

وسورة الملك من السور المكية ، وعدد آياتها ثلاثون آية ، وشأنها شأن سائر السور المكية ، التي تعالج – بالدرجة الأساس – موضوع العقيدة في أصولها الكبرى (١) ، وهي حافلة بألوان من الظواهر البلاغية مما دعاني إلى دراستها ، وقد ساهمت بفاعلية ونشاط في اثراء دلالاتها ، وعرضها عرضاً فنياً جمالياً معجزاً ، تحقق أهدافها وأغراضها في مخاطبة الفكر والنفس والوجدان .

وسيبين البحث توزيع الظواهر البلاغية في السورة ، بعد أن نورد نصها الكريم :

– بسم الله الرحمن الرحيم –

تباركَ الَّذي بيَدهِ المُلْكُ وَهُوَ على كلِّ شيءٍ قدير (١) الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليبلوَكم أيُّكُم أحْسَنُ عملاً وهوَ العزيزُ الغفورُ (٢) الذي خلقَ سَبْعَ سموات طباقاً ما ترى في خَلْقِ الرَّحمن من تفاوت فَارجع البصرَ هل ترى من فُطُور (٣) ثُمَّ ارجع البَصَرَ

(١) ينظر : صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني : ٣/ ٤١٤ .

كرَّتين ينقلبْ إليكَ البَصَرُ خاسئاً وهو حسير (٤) ولقد زيَّنا السَّماء
الدُّنيا بمصابيحَ وجعلْناها رجُوماً للشياطين وأعتدْنا لهُم عَذابَ السعير (٥)
وللذين كفروا بِرَبهمْ عذاب جَهَنَمَ وَبئسَ المصيرُ (٦) إذا أُلقُوا فيها
سَمِعوا لها شهيقاً وهي تفور (٧) تكادُ تميزُ من الغَيْظ كلما أُلقيَ فيها
فوْج سألهم خزنتها ألَمْ يأْتِكُمْ نذير (٨) قالوا بلى قدْ جاءنا نذير
فكذَّبنا وقُلنا مانزّلَ اللهُ من شيء إنْ أنتم إلا في ضلال كبير (٩) وقالوا
لوكُنّا نسْمَعُ أو نعقلُ ماكنّاً في أصحاب السعير (١٠) فاعترفُوا بذنبهم
فسُحقاً لأصحاب السَّعير (١١) إن الذين يخْشوْنَ ربَّهُم بالغيب لهُمْ
مغْفرَة وأجر كبير (١٢) وأسروا قوْلكم أو اجهروا به إنه عليم بذات
الصُّدور (١٣) ألا يعْلَمُ من خلَقَ وهوَ اللطيف الخبير (١٤) هوَ الذي
جَعَلَ لكُمُ الأرضَ ذلولاً فَامشُوا في مناكبها وَكُلوا منْ رزْقه
وإليه النشورُ (١٥) ءأمنتمُ مَنْ في السَّماء أنْ يخسفَ بكمُ الأرضَ
فإذا هي تمورُ (١٦) أمْ أمنتُمْ مَنْ في السَّماء أن يُرسلَ عليكم حاصباً
فستعلمون كيف نذير (١٧) ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف
كانَ نكير (١٨) أوَ لم يرَوا إلى الطيْرِ فوقهم صافات ويقْبضْن
مايُمْسكهُنَّ إلا الرحمنُ إنَّهُ بكلِّ شيء بصير (١٩) أمّن هذا الذي هوَ
جُنْد لكُمْ ينصرُكُم منْ دون الرحمن إن الكافرونَ إلا في غُرور (٢٠)
أمْ مَنْ هذا الذي يرْزُقكمْ إن أمْسكَ رزْقهُ بلْ لجوُا في عتو ونفور (٢١)
أفَمَنْ يمشي مُكباً على وجْهه أهدى أمْ من يمشي سوياً على صراط
مُستقيم (٢٢) قلْ هو الذي أنْشأكمْ وجَعَلَ لكُمْ السّمعَ والأبْصار
والأفئدةَ قليلا ما تشكروُن (٢٣) قلْ هو الذي ذرأكُمْ في الأرض وإليه
تحشرون (٢٤) ويَقولونَ متى هذا الوعْدُ إن كنتمْ صادقينَ (٢٥) قلْ
إنما العلْمُ عند الله وإنما أنا نذير مُبين (٢٦) فلماً رأوهُ زُلْفَةَ سيئت
وجوهُ الذين كفروا وقيل هذا الذي كُنْتمْ به تدَّعُون (٢٧) قل ارأيْتُم

إن أهلكنيَ اللهُ ومَنْ معي أو رحمنا فمنْ يجير الكافرين من عذاب اليم (٢٨) قلْ هوَ الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمونَ منْ هوَ في ضلال مبين (٢٩) قل أرأيتم إن اصبحَ ماؤكم غوراً فمنْ يأتيكمْ بماء معين (٣٠) . (صدق الله العظيم)

استقراءاً لايات السورة الكريمة نلحظ أن الظواهر البلاغية التي اصطلح على تسميتها بـ : (المعاني والبيان والبديع) قد توزعت فيها على نحو متفاوت حسبما يتطلبه السياق في أداء المعاني والأفكار التي قصد توصيلها إلى المخاطب .

ويمكن توزيعها على النحو الاتي :

أولا : علم المعاني .

الظواهر البلاغية التي تنضوي تحته تشغل حيزاً كبيراً من السورة ، وفي طليعتها : ١ـ الأسلوب الاستفهامي ، إذ يرد في أربع عشرة آية وبالأدوات الاتية :

أ ـ الاستفهام بالهمزة في سبع آيات (٨ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) .

ب ـ الاستفهام بـ (من) في ثلاث آيات (١٤ ، ٢٨ ، ٣٠) .

ج ـ الاستفهام بـ (كيف) في آيتين اثنتين : (١٧ ، ١٨) .

د ـ الاستفهام بـ (متى) في آية واحدة : (٢٥) .

هـ ـ الاستفهام بـ (هل) في آية واحدة : (٣) .

فالاسلوب الاستفهامي يُشكّل ـ وعلى نحو لافت ـ ظاهرة بلاغية بارزة في السورة ، وبخاصة الاستفهام الذي يخرج معناه مجازاً إلى (الإنكار والتعجيب) ، فيما عدا موضع واحد يخرج فيه الاستفهام إلى التقرير (توبيخاً وتبكيتا) للكافرين ، وهم يُلْقَون في نار جهنم : (الم يأتكم نذير؟) آية رقم (٨) .

وهذا الأسلوب يعدّ أداة حيوية فاعلة في السورة ، فهو يعمل بفاعلية على تحقيق اهدافها ومقاصدها ، إذ من شأن الاستفهام إثارة التساؤلات في ذهن المتلقي ، فهو في السورة يمثل طرقات متوالية في أذهان المتلقين وعقولهم ليبعثها على التفكير والتدبر بما تقرره السورة من حقائق وتصورات على صعيد السماوات وما فيها من عجائب من كمال الخَلْق ، وجمال الزينة ، وعلى صعيد الموت والحياة وما فيهما من قدرة الله وبلائه ، وحكمته وتدبيره ، وعلى صعيد عالم الغيب ، وعالم الشهادة ، وما فيهما من حقائق تدلل على قدرة الله وعظمته ، وعلى صعيد الرزق الذي يسّره اللهُ للانسان ، وغير ذلك من الموضوعات التي تعالجها السورة .

فالاستفهام يعمل بقوة على إطلاق العقل والحواس والبصيرة لتتأمل تلك الحقائق وتتدبّر ...

٢ ــ أسلوب التقديم والتأخير : ويرد في اربع آيات (٦ ، ١٥ ، ٢٤ ، ٢٩)

٣ ــ أسلوب القصر : ويرد في ثلاث آيات (٩ ، ٢٠ ، ٢٦) .

٤ ــ أسلوب الأمر : ويرد في ثلاث آيات (٣ ، ٤ ، ١٥) .

٥ ــ تقديم المسند اليه (هو) على (الخبر الفعلي) في ثلاث آيات (١٥ ، ٢٣ ، ٢٤) .

٦ ــ تكرار اسم الموصول (الذي) في ثمان آيات : (١ ، ٢ ، ٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤) .

ثانياً : علم البيان

ورد من اساليبه في السورة ما يأتي :

١ ــ الاستعارة المكنية : في ثلاث آيات (٧ ، ٨ ، ١٥) ، وهي استعارة تقع في المفردات .

٢ ــ الاستعارة التمثيلية : في آية واحدة (٢٢) ، وهي استعارة تقع في التركيب .

٣ ــ الاستعارة في الحرف : في خمس آيات (٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٩) .

٤ ـ الكناية : في آيتين اثنتين (٤ ، ١٥)
٥ ـ العكس في الكلام : في آيتين اثنتين (١٠ ، ١١) .
٦ ـ المجاز في آية رقم واحد في قوله ـ سبحانه ـ : (بيده المُلْـكُ..)
وهي من آيات الصفات التي تتعلق بذات الله . ومعنى المجاز فيها يوجه على سبيل الكناية .

ثالثاً : علم البديع .

ورد في السورة من أساليب البديع (فن الطباق) بنوعيه الصريح والضمني وقد شغل حيزاً كبيراً في السورة ، وتوزع على النحو الاتي :
١ ـ الطباق الصريح ، سواء كان بين الاسمين أو بين الفعلين أو بين مشتقات الفعل ، ونلاحظ هذا النوع من الطباق بأنواعه في الايات الاتية : .
أ ـ في الايات (٢ ، ٢٢ ، ٣٠) طباق بين الاسمين .
ب ـ في الايات (١٣ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٢٨) طباق بين الفعلين .
ج ـ في الاية (١٩) طباق بين الفعل واسم الفاعل ـ من مشتقات الفعل ـ
د ـ الطباق بين صورتين : صورة أصحاب السعير من آية (٦ ـ ١١) مع صورة الذين يخشون ربهم بالغيب .. في آية (١٢).
٢ ـ الطباق الضمني : وهذا النوع من الطباق حاصل بين آية (١٥) الأرض الذلول ، مع الايات بعدها (١٦ ـ ٢١) .

هذا ما اهتدى إليه البحث من ظواهر بلاغية في السورة الكريمة وسيجلي البحث وظيفتها التعبيرية والتصويرية في أداء المعاني والأفكار ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

تحليل السورة بلاغياً :

تبدأ السورة الكريمة بمطلع مجمل غاية في الإيجاز ، وغاية في الحسن والجمال . والايجاز هو : « عبارة عن تأدية المقصود من الكلام بأقل

عبارة متعارف عليها» (١) ، أي أن تكون الألفاظ أقل من المعاني ، مع الوفاء بالمعنى ، وإلا كان إخلالا يفسد الكلام . ويسميه بعض المعاصرين «التكثيف» (٢) . ويعد الايجاز مصدراً مهماً من مصادر الإيجاز في التعبير الأدبي الفني .

وقد عد البلاغيون (البلاغة) مرادفاً من مرادفات (الايجاز) ، وذلك لأنه كما يقول أبو هلال العسكري « بالقلوب أوقع ، وإلى الحفظ أسرع ، وبالألسن أعلق ، وللمعاني أجمع ، وصاحبها أبلغ وأوجز » (٣) .

ومطلع السورة :

«تبارك الذي بيده المُلْكَ وهو على كلٍّ شيء قدير»

غاية في الايجاز لأن موضوعات السورة المؤلفة من (ثلاثين آية) على تنوعها وتعددها تنبثق عنه ، وتتصل به أتصالا عضوياً وثيقاً ، وهي في الوقت نفسه مفسرة مبينة له .

فمن ملك الله وقدرته—المذكورين في تركيب الاية—كانت موضوعات السورة : من خلق الموت والحياة والابتلاء بهما. وخلق السماوات وتزيينها بالمصابيح ، وجعلها رجوماً للشياطين . وخلق جهنم وإعدادها للكافرين . وخلق الأرض وجعلها ذلولا للبشر . وجعل الخسف والحاصب والنكير ألواناً من العذاب يصيب بها الضالين المكذبين ، وغير ذلك من موضوعات السورة . كالرزق ، وآية الطير في جو السماء ، والانشاء والسمع والأبصار والأفئدة ، والذرء في الأرض والحشر ، والماء الذي تقوم به الحياة ...

كلها تتصل بمطلع السورة المجمل الموحي ، وهي مفسرة له ومؤكدة لمعناه.

وهو غاية في الحسن والجمال لكونه منبهاً وملخصاً للمعنى الكبير للسورة وهو : قدرة الله المطلقة ،وسلطانه الشامل وإرادته الكاملة ، وعجز

---

(١) الطراز ، للعلوي : ٣/ ٣١٦ – ٣١٧ . وينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ص ٧٦ ومابعدها .

(٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر عصفور ، ص ٢٥٤ .

(٣) الصناعتين ، للعسكري ، ص ١٧٤ .

الانسان وضعفه أمام مالك الملك – سبحانه – ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى : فإن الحسن والجمال قد تبدى فيه – أيضاً – في تمهيده للايقاع الموسيقي المتسق مع مابعده من الايات التي انتهت فواصلها بحرف الراء ، مثل (المطلع) في إحدى وعشرين آية من السورة ، وبقيتها انتهت الفاصلة بحرف الروي (النون) ، ماعدا آيتين هما ، (٢٢ و ٢٨) انتهت الفاصلة فيها بحرف الميم .

وعلى الرغم من تقارب هذين الحرفين(الميم والنون)موسيقياً بوصفهما حرفي الغُنَّة التي تخرج من الخيشوم ، إلا أنهما قد أحدثا تنوعاً موسيقياً ملحوظاً في السورة . ويرى بعض الباحثين أن « هذا الانتقال في الفواصل من النون إلى الميم هو تنويع ومراوحة تؤذن بإثارة اليقظة وتجديد الإنتباه » (١) في تلقي الايات من معان وأفكار ...

وحسن المطلع وجماله عند البلاغيين « دليل على جودة البيان وبلوغ المعاني إلى الأذهان ، فإنه أول شيء يدخل الأذن وأول معنى يصل إلى القلب وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل» (٢) في فهم المرامي والأهداف التي يسعى إليها التعبير . فالمطلع هو (أول مايلامس السمع) وقد « أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه ، وأبلغها ، وأكملها » (٣) كما أتى مطلع هذه السورة الكريمة .

ويلفت الانتباه في هذا المطلع الفعل (تبارك) بمعنى«تعاظم وتعالى»(٤) في مجاورته للفظة (الملك) في الاية ، فهو يوحي – بهذه المجاورة – بالنماء

---

(١) أحرف المد الطويلة والقصيرة ، عبد الحميد حسن ، ص ٣٢٤ ، نقلا عن الفاصلة في القرآن ، محمد الحسناوي ، ص ٢٣٦ الهامش .
(٢) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان ، لابن القيم ، ص ١٣٧ .
(٣) الاتقان في علوم القرآن ، للسيوطي : ٣١٧/٣ .
(٤) جامع البيان في تفسير القرآن ، للطبري : ٢٩/ ٢ .

والبركة والفيض في هذا الملك – كما سنرى ذلك في السورة صوراً من فيضه وبركته – سبحانه – بمصادر الرزق التي أنعمها على مخلوقاته وبخاصة الإنسان ، وبحفظه لهذه المخلوقات ورحمته بها ، والتي أبدعها غاية في الكمال والجمال ، وغير ذلك مما تقرره السورة جملة وتفصيلا .

وقد ألقى ظلال التعظيم والتفخيم اسم الموصول (الذي) (*) ، فضلا عن التقديم في (بيده الملك) الذي أفاد الاختصاص ، وهو المعنى اللائق بشأنه – تعاظم ملكه وجلت قدرته – وأكد معنى التعظيم والتفخيم وقواه التعبير (بيده الملك) فهو كناية موحية عن الهيمنة والاستيلاء ، والسلطان الشامل ، والقدرة والإرادة المطلقتين من كل قيد في التصرف في هذا الملك العظيم . قال الصابوني : « الذي بقبضة قدرته ملك السموات والارض يتصرف فيهما كيف يشاء »(١) فوراء هذا التعبير الكنائي دلالة بالغة على أنه – سبحانه – هو المالك لهذا الملك ، المهيمن عليه ، القابض على ناصيته ، المتصرف فيه كيف يشاء ، وحين يشاء وحيث يشاء « وهو على كل شيء قدير » .

مقدرته – سبحانه – مطلقة من كل قيد ، فلا يعجزه شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يحول دون إرادته شيء (٢) .

والمطلع بايجازه المكثف يلقي في عقل المتلقي وحسه معنى حقيقة الاعتماد على الله ، والرجاء فيه ، فهو صاحب الملك الحقيقي ، ولا مالك غيره ، ولا معبود سواه .

ثم تتوالى ادلة قدرته – سبحانه – دليلا بعد دليل :

« الذي خَلَقَ الموتَ والحياةَ ليَبلوَكم أيّكم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفورُ »

(*) سيتكرر اسم الموصول (الذي) في سبع آيات (٢ ، ٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤) مما يعمق معنى (التعظيم والتفخيم) على نحو جلي ، وهو المعنى اللائق بشأنه سبحانه .

(١) صفوة التفاسير : ٣/ ٤١٥ .

(٢) ينظر : جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩/ ٢ .

وهنا نلحظ الطباق(٥) بين الإسمين (الموت والحياة)، والطباق من شأنه أن يعمل على إبراز التناقض في المعنى بين الكلمتين ، والمعاني تتمايز بالتضاد وهي تعمل في مجال واحد « فتكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بأبعادها المختلفة » (١) فيكشف الطباق بمستواه الأول على نحو جلي قدرة الله العظيمة ، وإرادته التي تفعل ما تريد بلا حدود أو قيود ، كما يكشف عن حكمته تعالى ، فالحياة التي توحي بالحركة والعطاء والإغداق ، قد تصبح سكوناً وأخذاً وحرماناً متمثلة بـ (الموت) فيتجلى من خلال ذلك ضعف الإنسان وعجزه أمام مالك الملك – سبحانه– كما أن (الموت والحياة) يشكلان موازنة حكيمة بديعة تنظم الحياة وتحققها على نحو لايجور أحدهما على الاخر ، وبهما تجري الحياة بهذا النظام ، الحكيم المتعاقب المرسوم .

والمستوى الثاني للطباق تأثيره الخاص المتميز ؛ إذ يتجلى هذا التأثير بجمعه بين الأضداد (الموت والحياة) مما « يخلق صوراً ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القاريء ووجدانه فيتبين ما هو حسن منها ويفضله على ضده ... فتترك في الشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن المقارن » (٢) .

ويصعد هذا المستوى للطباق في الاية تقديم الموت على الحياة « خلق الموت والحياة » فلهذا التقديم بلاغته المؤثرة ،اذ يتضافر هذا التقديم مع الطباق في الكشف عن الحركة الفكرية ، بأبعادها المختلفة في حنايا تركيب الاية ، والقرآن يضع « اللفظ في مكانه إذا أبدل فسد معناه أو ضاع الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة » (٣) ، وقد كشف الزمخشري عن

---

(٥) هو الجمع بين الشيء ومقابله أو الشيء وضده ، وقد يكون الثنان المجموع بينهما إسمين أو فعلين أو حرفين .

(١) في البنية والدلالة ، د. سعد أبو رضا ، ص ٣٧ .

(٢) البلاغة والتطبيق ، د. أحمد مطلوب و د. حسن البصير ، ص ٤٤٣ .

(٣) بيان إعجاز القرآن ، للخطابي ، ص ٢٩ . وينظر : الإعجاز البياني للقرآن ، ص ١٩٤ ، ٢٦٥ .

بلاغة هذا التقديم بقوله : « وقدم الموت على الحياة ، لأن أقوى النـــاس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الاية أهم »(١) ؛ فهو يلحظ التناسب في تناسق ألفاظ تركيب الاية في أداء الدلالة النفسية التي يهدف إليها القرآن ، وهي : إبراز أثـــر الموت في الانسان بوصفه داعياً قوياً مؤثراً في النفس الانسانية يحفزها إلى إختيار العمل الصالح على غير الصالح ، لأن وراء الموت بعثاً وجزاءاً لابد منهما .

والموت والحياة بوصفهما نظامين للحياة ، وبهما تجتلي الحكمة البالغة ، فإنهما ينتهيان إلى غاية :

«ليبلوكم أيّكُم أحسنُ عملا وهو العزيز الغفور»

فليس الموت والحياة عبثاً (*) لغير قصد أو غاية ، إنما يقترنان بغـايـــة محتمة تجعل لهما قيمة ووقعاً مؤثراً في حياة الانسان حساً وفكراً وسلوكاً.

ولفظة «أحسن» موحية بالمعاني ، ومن معانيها : إنها تحث الانسان أن يأخذ دوره الموكول إليه ، فحياته على هذه الأرض إنما هي فرصة للابتلاء والإختبار ، فهو محاسب على أفعاله في كل صغيرة وكبيرة ، وهي موحية -كذلك- بالمكانة السامية لهذا الإنسان عند بارئه أن يكون محل ابتلاء واختبار، كما تلقي في عقل الانسان وحسه اختيار العمل الصالح ، وترك الغفلة واللهو وتبعث فيه اليقظة الدائمة لأن يستثمر حياته في الخير والبناء ، فهو سينقلب بعد الموت حيث الحساب والجزاء .

والله - سبحانه - لايكل الإنسان إلى نفسه ، وإنما يمدُّه بالعون والرعاية

---

(١) الكشاف : ٤٦١/٤ . وينظر التفسير الكبير ، للرازي : ٣٠ / ٥٥ .

(*) ينظر سورة (المؤمنون) آية : ١١٦ . وفي الاية التي نحن بصددها حسن تعليل بديع في قوله (ليبلوكم) مما يضفي على الاية قيمة بلاغية .

والمغفرة إذا أناب إليه . والله ـ كذلك ـ غالب في انتقامه ممن عصاه :
« وهو العزيز الغفور »

قال الطبري : « هو القوي الشديد انتقامه ممن عصاه وخالف أمره الغفور ذنوب من أناب إليه وتاب من ذنوبه » (١)

ومن قدرته ـ سبحانه ـ : خلق السماوات العلى بكمالها وجمالها المعروضين للتفكر والتأمل :

«الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فأرجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير» .

نلحظ في تركيب الايتين أسلوب الانشاء الطلبي (*)، ويتمثل في أسلوب الأمر (فارجع البصر ... ثم ارجع البصر) ، وأسلوب الاستفهام (هل ترى من فطور) . وقد أسهم في صورة حيوية فاعلة في جلاء المعنى الكامن والمتمثل بـ (الكمال) في خلق السماوات ، بعد أن نبهت الاية على عظمة الله بتكرار اسم الموصول (الذي)، وهو يلقي ـ كذلك ـ بظلاله (التعظيم) على هذا الخَلْق ، فهو خلق عظيم ، وصعّد من تصوير عظمته قوله : «خلْقُ الرحمن من تفاوت» بدلا من قوله بالضمير ، (خلقهن) تنبيهاً على عظمة خلقهن ، قال الزمخشري : « وحقيقة التفاوت : عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضاً ولا يلائمه ... وأصلها ما ترى فيهن من تفاوت ، فوضع مكان الضمير قوله : (خلق الرحمن) تعظيماً لخلقهن ،وتنبيهاً على سبب سلامتهن من التفاوت : وهو أنه خلق الرحمن ، وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب») (٢) .

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٢/٢٩ .
(*) الانشاء الطلبي : هو الكلام الذي يستدعي مطلوباً او شيئاً غير حاصل وقت الطلب ، وهو خمسة أنواع : الأمر ، والنهي ، والاستفهام ، والتمني ، والنداء .
(٢) الكشاف : ٤/ ٤٦١ .

فالاتيان بما تضمنتاه من إنشاء طلبي تستدعيان أمر : التفكر والتأمل في هذا الخلق العظيم ،والانشاء يحقق هذا الأمر في صورة حيوية فاعلة ، إذ يعمل على مضاعفة إحساس المتلقي بالفكرة التي يهدف إليها التعبير القرآني .

ففعل الأمر (فارجع البصر) أوحى بمعنى مجازي يتمثل في (الاعتبار) بخلق السماوات ، ويتضاعف هذا الإحساس بالمعنى بالاستفهام (هل ترى من فطور؟) الذي دلّ مجازاً على معنى (النفي) ، نفي أن يكون في السماوات من فطور أي « من صدوع أو شقوق » (١) ، ويمكن توجيه الاستفهام على معنى الاستبعاد والاستحالة ، استحالة أن يقع البصر على فطور ، وكلا المعنيين المجازين يتناسب مع الهدف الذي ترمي إليه الايتان .

فالاستفهام يقرر حقيقة الكمال المطلق في خلق السماوات ويؤكده .ولكي يثبت السياق هذه الحقيقة في العقول والقلوب ، فإنه يعمد إلى أسلوب التحدي الأكثر إثارة للمتلقي ، وذلك بتكرار فعل الأمر (ثم ارجع البصر كرتين) وهو إطناب يزداد الأسلوب به تحدياً واثارة ،فيعمل بشكل فاعل على الأرتقاء بحالة المخاطب تأملا وتفكراً لتحقيق الأستجابة النفسية التي يرمي إليها القرآن وهي الوقوف على المعنى وراء هذا الخلق العظيم .

وليس المراد (بكرتين) العدد نفسه (التثنية) وإنما هو دلالة على الكثرة (٢)، كثرة التطواف بالبصر والقلب والفكر في تملي خلق السماوات .

وبعد هذا التطواف المتكرر : « ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير» أي : «يرجع إليك بصرك خاشعاً ذليلا ، لم ير ما تريد (وهو حسير) أي وهو كليل متعب قد بلغ الغاية في الإعياء » (٣) ، وفي التعبير القرآني كناية

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩/ ٢ .
(٢) ينظر : الكشاف : ٤/ ٤٦١ : وصفوة التفاسير : ٣/ ٤١٦ .
(٣) صفوة التفاسير : ٣/ ٤١٦ .

موحية بكثرة النظر : كما أنها توكيد – في الوقت نفسه – لمعنى الكمال المطلق في هذا الخلق العظيم ، ودلالة بالغة على خالقه العظيم – سبحانه –.

فتوظيف السياق القرآني لأسلوب الانشاء الطلبي يرمي إلى معان عميقة تتجاوز المعاني الظاهرية الحقيقية للأمر والاستفهام ، وقد دلّ على هذه المعاني وحددها السياق الذي تآلفت فيه ، وهي معان عميقة لأنها تعد نقلة كبيرة للمخاطب فكراً وحساً وروحاً من حيز وواقع محدود متمثلا بالأرض التي يعيش فيها إلى عالم كبير هو عالم السماوات ، وذلك من خلال مايثيره هذا الأسلوب من خيال في المتلقي يعمل على إدراك المعاني والتفاعل معها وصولا إلى المعنى الكبير الذي تهدف إليه السورة .

ويتواشج الكمال في خلق السماوات مع الجمال على صعيد واحد ، بل إن الكمال في الخلق يستلزم الجمال ، فهما اعتباران لحقيقة واحدة : «ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير» .

والاية تكثف مفهوم الجمال وتجليه بلفظة (زينا) ، فالجمال في الاية مقصود ، فهو اعتبار لحقيقة الكمال والإبداع في الخلق . والجمال يتبدى للمتلقي من خلال زينة السماء الدنيا بالمصابيح الساطعة المتلألئة للعين والفكر ، وهي تبعث في عقل الإنسان ونفسه مشاعر الإحساس بالجمال وهو يتملى هذا الخلق .. وهو أظهر مايتجلى في خلق السماء الدنيا .

فالجمال في القرآن يحتل مساحة واسعة فيه يرتقي بالانسان حساً وعقلا وشعوراً ، والجمال في القرآن ليس جمالا منحصراً في السماء ، بل يمتد على مساحات واسعة في العالم والطبيعة ، وقارىء القرآن يلتقي به « في كل زاوية من زوايا الكون ومنعطف من منعطفات الطبيعة .. ويلتقي به كذلك من خلال الحياة في تدفقها الابدي .. ومن خلال النبات والحيوان .. ثم من خلال

الانسان نفسه ، سيد المخلوقات الذي خلقه الله سبحانه في « أحسن تقويم »(١) والذي صوره فأحسن صورته ، فالجمال في صميم العالم والطبيعة ، وفي قلب الحياة والأحياء ، وفي تركيب المخلوقات ، وفي جسد الإنسان ، وملامح وجهه ، والجمال في العلاقات (المتناسبة) ، والتوزيع الفذ ، والمساحات المتناظرة بين الأشياء ، بعضها مع بعض ، وبين المخلوقات بعضها مع بعض.. بدءاً بتركيب الذرة ، وانتهاءاً بالعقل والروح وقوة الإرادة .. والجمال في القيم المنضبطة الموزونة ، التي يتحرك الانسان بهديها ، وعلى ضوئهـــا وإلزامها » (٢) .

ولابد من الإشارة المهمة التي نؤكدها — غير مرة — : إن الجماليات التي يوصلها التعبير القرآني — كما في الاية — ترتبط بغايات القرآن ومقاصده ، فالجمال وسيلة فاعلة لتحقيق أهداف القرآن ، إذ أن « الخلق الجمالي في العالم والطبيعة ، ليس هدفاً بحد ذاته ، وإنما هو وسيلة أريد بها تمكين الإنسان من التحقق بعلاقة أكثر حيوية وتدفقاً وصميمية بالكون .. الأمـــر الذي يقوده إلى خالق الكون ، من خلال أشد نقاط الأرتكاز في شخصيته قدرة على التواصل والفاعليه » (٣) .

ومن هنا فإن المفهوم الجمالي في القرآن يتقاطع إن لم يتناقض تماماً مع مفهوم الجمال في الفلسفات والمذاهب المتضاربة المتباينة . فليس الجمـــال في القرآن غرضاً بحد ذاته ، وليس في القرآن (برناسية) تدعو إلى (الفن للفن) (٤) ، أو (الجمال للجمال) ، وإنما الجمال في القرآن وسيلة حيوية فاعلة في تحقيق أهداف القرآن التي هي في محصلتها لصالح الإنسان .

(١) سورة التين : ٤ .
(٢) مدخل الى نظرية الأدب الأسلامي ، د. عماد الدين خليل ، ص ١١ . وينظر : حديث عن الجمال في الاسلام ، د. عماد الدين خليل ، ص ٢١ — ٢٢ .
(٣) مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، ص ١٠ .
(٤) ينظر مثلا : الجمالية ، ر ، ف . جونسون ، ترجمة : د. عبد الواحد لؤلؤة ، ص ١٦ ومابعدها .

والاية توحي بثراء الدلالة واتساعها ، فالمصابيح بما تبعثه من جمال نور وهداية (*) ، توحي على الضد منها (الشياطين) بالظلام والضلال .

فالجمال والنور والهداية هي اعتبارات وحقائق مركوزة في صميم الوجود ، وهي ثابتة واضحة ، ونقيضها المعاني التي توحي بها الشياطين ، وهي طارئة زائلة تنتهي هي واتباعها من الكافرين — الذين أخرجتهم من النور إلى الظلمات — (١) إلى جهنم كما توضح السورة ذلك .

ومثلما أقرت الاية رجم الشياطين في الدنيا ، وعذاب السعير في الاخرة ، كذلك فإن للذين كفروا العذاب في الدنيا ، والعذاب في الاخرة سواء بسواء ، وذلك بسبب العلاقة الملحوظة بين الشياطين والذين كفروا :

«وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير» .

ثمة نلحظ الوصل (بالواو) ،لاشتراك الاية في الحكم مع الاية السابقة ، وذلك للجهة الجامعة بين الشياطين والكافرين واشتراكهما في العذاب ، وفي هذا الوصل ايحاء بشدة العذاب وفظاعته ، اذ يقترن مع الشياطين أعداء الله ويصعد من شدة العذاب وفظاعته أسلوب التقديم في الاية ، حيث تقدم الخبر وهو المسند (وللذين كفروا) على المبتدأ وهو المسند إليه (عذاب) جهنم ، ولهذا التقديم (*) بلاغته ودلالته ،إذ أفاد معنى الاختصاص ، فعذاب جهنم مهيأ ومخصص للذين كفروا ، فليس ثمة مأوى لهم إلا جهنم ، فهم

(*) ذكر المفسرون ان للنجوم وظائف ثلاث : زينة في السماء ، ونور وهداية للناس ، ورجوماً للشياطين ، ينظر مثلا : جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩/ ٣ — ٤ . والكشاف : ٤٦٢/٤ . وصفوة التفاسير : ٤١٦/٣ . وقد اعتمد المفسرون على ماورد في القرآن من آيات تحدد هذه الوظائف ، منها الاية التي نحن بصددها إذ تحدد وظيفتين ، وآية أخرى برقم (٩٨) من سورة الأنعام .

(١) ينظر سورة البقرة ، آية : ٢٥٨ .

(*) التقديم : هو تبادل في المواقع ، تترك الكلمة مكانها في المقدمة لتحل محلها كلمة أخرى ، لتؤدي غرضاً بلاغياً ماكانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغوي . ينظر : بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، د. منير سلطان ، ص ١٣٨.

يختصون بعذابها ، والتخصيص يؤكد الوعيد الشديد ، ويهول عذاب جهنم ويعظمه ، كما أن التخصيص بمعناه ينسجم مع سياق السورة الكريمة أيما انسجام ، إذ أبرزت السورة في سياقها الروح الكامنة في غيبيات لا نراها ولكن نؤمن بها — كما سيأتي مع صورة جهنم — إذ يجليها الأسلوب الاستعاري التشخيصي (**) في صورة كائن حي هائج ممتلىء غيظاً وغضباً على الكافرين . وهذه الروح الكامنة في الموجودات جميعاً — المنظورة وغير المنظورة — يجليها القرآن في مواضع اخرى أجلى بيان (١) .

فالكون وما فيه من مخلوقات كلها منقادة لله ، وحدة واحدة ، تؤمن بربها وتسبح له بروحها الخاصة التي لا ندركها ، لذلك تغتاظ السماوات والأرض وكل الموجودات من الكافرين في الأرض ، وتنكر على الكافرين كفرهم بغيظ وتعجب ، ومع جهنم — بوجه خاص — وهي من الموجودات غير المنظورة الان — نحس في وصف عذابها التصويري المروع للقلوب والنفوس معنى الإنكار والتعجب من الكافرين بربهم على نحو جلي .

فالتخصيص في الاية ينسجم مع هذا الملمح الفكري والروحي ، تهويلا وتفظيعاً لعذاب الكافرين الذين انحرفوا عن طريق الحق القديم الثابت في صميم الكون والمخلوقات . فجهنم مخصصة لهم ، وأنهم أصحابها

(**) التشخيص : هو إضفاء الصفات الإنسانية على مالا يعقل في الطبيعة ، فيبث الحياة والحركة في مفاصل الصورة ، وقد عبر عبد القاهر الجرجاني عن ذلك بقوله « فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقاً ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعاني الخفية بادية جلية » أسرار البلاغة ، ص ٤١ . والتشخيص هو عملية نفسية صرف ، ووظيفته التأثير في نفس المتلقي ، إذ يظهر التشخيص العبارة القرآنية وهي نابضة بعناصر الحياة من خلال تخيل الحياة في غير الأحياء ، وإضفاء الصفات الأنسانية على الموجودات فيزاح بذلك العطاء المادي عن الجمادات فتكشف عن روحها ، فتتجاوب روح الانسان معها فيتعمق شعوره وإحساسه بهذه الموجودات ، الخيال هو المبدأ الجوهري في أسلوب التشخيص إذ يعمل على تمثيل المعاني تمثيلا واضحاً ، يتأثر بها الانسان المتخيل أبلغ تأثير .

(١) ينظر سورة الاسراء : ٤٤ . وينظر بداية السور الاتية : الحديد ، والحشر ، والصف والجمعة ، والتغابن .

الجديرون بها دون غيرهم ، جزاءاً على كفرهم بربهم العظيم الذي يؤمن به ويسبح له كل شيء .

وفي هذا يتجلى لنا ملمح جمالي آخر على صعيد الانسان والقيم والأخلاق يتواشج مع الجمال في السماء الدنيا الذي نبهت عليه السورة ، وهذا الملمح الجمالي يتمثل في : أن الحياة الايمانية تمثل حالة التوافق والإنسجام والألفة مع الطبيعة والحياة ، وأن الحياة الكافرة تمثل حالة الأنحراف والإصطدام بسنة الكون والطبيعة والحياة .

وجلاءاً لمعنى الإنكار والتعجب الذي توحي به جهنم ، يوظف سياق السورة الاسلوب الاستعاري التشخيصي في تصويرها ، وتصوير أصحابها الضالين الكافرين ، وبهذا الأسلوب تشخص جهنم — وهي نابضة بالحياة والحركة — في لوحة متكاملة مفزعة رهيبة (*):

« إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » .

ثمة نلحظ جهنم بالاستعارة المكنية التشخيصية وهي مخلوق حي ضخم هائج له شهيق ، والشهيق هو الصوت الفظيع (١) القبيح المنكر ، وهي تكاد تتقطع من الغيظ من شدة الغليان ، فنيرانها مشبوبة هائجة تغلي حنقاً وغيظاً

(*) وتتضح أبعاد اللوحة المفزعة الرهيبة لجهنم لو قرأنا الايات الاستعارية التشخيصية الأخرى التي صورت جهنم وهي : قوله تعالى من سورة الفرقان ، أية ، ١١ — ١٢ ، «بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » وقوله من سورة المعارج ، آية : ١٥ — ١٨ . « كلا إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى ، وجمع فاوعى » وقوله من سورة ق ، آية : ٣٠ «يوم نقول لجهنم هل أمتلات وتقول هل من مزيد» . إذ تكتمل اللوحة لجنهم فنرى لها خواص وعناصر جديدة هي الرؤية والحوار فضلا عن التغيظ والشهيق والزفير ، وبذلك تشخص جهنم متحفزة تنتظر الكافرين على غيظ وحنق وهي تراهم من مكان بعيد ، وهي تسأل فتجيب بشراهة وظمأ لا يعرف الإكتفاء ، وهي تتكلم وتدعو الكافرين فلا يفلت منها أحد .

(١) ينظر : النكت في إعجاز القرآن ، ص ٨٧ .

على الكافرين . وهذا التصوير مقصود يبث الخوف في النفوس والهلع . قال الزمخشري : « إذا ألقوا فيها ، أي طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ، ويرمى به .. (سمعوا لها شهيقاً) تشبيهاً لحسيسها المنكر الفظيع بالشهيق ، (وهي تفور) تغلي بهم غليان المرجل بما فيه . وجعلت كالمغتاظة عليهم لشدة غليانها بهم ، ويقولون فلان يتميز غيظاً ويتقصف غضباً » (١) ، فالاستعارة المكنية التشخيصية فيها تشبيه جهنم بمخلوق حي هائج ، ثم حذف المشبه به وأبقي في التعبير خاصية من خواصه تمثلت بـ (بالشهيق والتغيظ) على سبيل الاستعارة المكنية .

والكلمات المختارة في صورة جهنم شديدة الايحاء بمعناها ، وكأن المعنى يصور بالألفاظ « شهيقاً وهي تفور » و« تكاد تميز من الغيظ » فحروف هذه الكلمات بموسيقاها تصور المعنى تصويراً دقيقاً لجهنم وهي مغتاظة غاضبة (*) .

لذلك فإن هذه الألفاظ الاستعارية المسموعة هي كالصور وكأنها شاخصة أمام العين ، وهذا ما عبر عنه ابن رشيق وهو ينقل رأي بعض النقاد في أن «الألفاظ في الأسماع كالصور في الأبصار » (٢) أو كما عبر ابن سنان الخفاجي عن ذلك بقوله : « تجري من السمع مجرى الألوان من البصر» (٣).

---

(١) الكشاف : ٤/ ٤٦٣ .

(*) إن اللغة في القرآن الكريم تؤدي دوراً كبيراً في العطاء الموسيقي ذلك أن الموسيقى فيه لا تنبع من وزن شعري كالذي عرفناه في تفعيلات الشعر العربي ولكنها تنبع من اللغة نفسها ، من ائتلاف الأصوات في اللفظة الواحدة وفي سياق الألفاظ وتناسقها وتناغمها وأدائها للمعنى ودلالته عليه ، وقد بلغت هذه الخصيصة — تصوير المعاني بالألفاظ — في القرآن الذروة في التكامل والوضوح ، الجرس والايقاع في تعبير القرآن ، د. كاصد ياسر حسين ، ص ٣٤٢ — ٣٤٣ . وينظر في دلالة الجرس على المعنى : دلالة الألفاظ ، د. ابراهيم أنيس ، ص ٦٢ ومابعدها . وجرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د. ماهر مهدي هلال ، ص ٢٨٨ . ومابعدها .

(٢) العمدة ١٢٨/١ .

(٣) سر الفصاحة : ٦٦ .

ويقول ابن الأثير واصفاً الألفاظ : « فالذي يستلذه السمع منها ، ويميل إليه هو الحسن، والذي يكرهه وينفر عنه هو القبيح»(١).ولاشك في أن المفردات الاستعارية التي صورت جهنم هي معبرة مؤثرة في السمع ، وذلك مقصود لتحقيق الاستجابة في النفس المتلقية من خلال إثارة الانفعال المناسب المتمثل بالخوف والهلع والتحذير من الوقوع في جهنم .

وساهم أسلوب الاستفهام التقريري في الاية : « ألم يأتكم نذير» في تصوير العذاب الشديد ، فالاستفهام معناه : توبيخ الكافرين وترذيلهم ؛ فليس ثمة عذاب أشد وقعاً وتأثيراً من توبيخ الضائق المكروب وتأنيبه ؛ فالاستفهام أداة حيوية في تصوير هذا العذاب النفسي الذي يواجهونه فوق عذابهم المادي في جهنم ، قال الصابوني : « وهذا السؤال زيادة لهم في الإيلام ، ليزدادوا حسرة فوق حسرتهم ، وعذاباً فوق عذابهم » (٢) .

وهذا النوع من الاستفهام لايحتاج معه المتكلم (السائل) إلى جواب من المخاطبين (أصحاب جهنم) ، لأن التقرير معناه أن «تقرر المخاطب بشيء ثبت عنده ، لكنك تخرج هذا التقرير بصورة الاستفهام ، ذلك لأنه أوقع في النفس ، وأدل على الإلزام » (٣) فيكون الغرض من الاستفهام في الاية إقرارهم بمجيء النذير ، لما في الاستفهام من حجة دامغة يصعّد من تصوير العذاب والموقف المخزي ويؤكده :

«قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء إنْ أنتم إلا في ضلال كبير»

وتقترن بإجابتهم ظواهر بلاغية تعمل على نحو فاعل في كشف نفسية هؤلاء الكافرين المكذبين للنذير في حياتهم الدنيا ، استحقوا بها عذاب جهنم المادي والمعنوي ، فأسلوب النفي في ردهم للنذير « وقلنا : مانزل الله

(١) المثل السائر : ١١٤/١ .
(٢) صفوة التفاسير : ٤١٧/٣ .
(٣) البلاغة فنونها وأفنانها . د. فضل حسن عباس ، ص ١٩٠ .

من شيء » يجلي إمعانهم في التكذيب ، وتماديهم في النكير ، فهو أسلوب مؤكّد بـ (من) ينكرون فيه أن الله نزل شيئاً عليهم وعلى غيرهم ، بهذا العموم وهذا الإطلاق ، فأسلوب النفي المؤكد يكشف عن ادعائهم العريض الفارغ ، وعن غرورهم وتبجحهم ، وعن سخريتهم من الرسول النذير.. ثم يضيء (أسلوب القصر) المؤكد بالنفي والاستثناء على نحو أجلى نفسيتهم الكافرة المتبجحة على الله ورسله بقولهم للرسل المنذرين : « إنْ أنتم إلا في ضلال كبير» فهو اسلوب مكثف ينطوي تحته النفي والاثبات : نفي وظيفة (الانذار) عن الرسل ، واثبات (الضلال الكبير) لهم ، فوسموا رسل الله — صلوات الله وسلامه عليهم — بالضلال بهذا الاسلوب المؤكد ، إذ حصروا مهمة الرسل ووظيفتهم في دائرة الضلال لايتعدونها إلى غيرها بزعمهم — ، وكأن الرسل المنذرين (بالقصر) يجسّمون في صورة الضلال بل هم الضلال بذاته كما صور ذلك حرف الجر (في) فقد جاء في سياق قولهم بالمعنى الاستعاري التصريحي ، وذلك بأنتقاله من مجال متواضع عليه إلى مجال مجازي جديد (*)، ومن شأن هذا الاستعمال الاستعاري للحرف أن يعطي لتركيب الاية ايحاءاً وخصوبة في التعبير عن المعنى الذي يهدف إليه القرآن .

فالحرف (في) الاستعاري منح سياق الاية قوةً في التعبير عن موقف الكافرين من رسل الله المكرمين ، إذ أصبح (الضلال) وهو معنى معنوي (تجريدي) بحرف الجر (في) الذي يفيد الظرفية المكانية في استعماله الأصلي

(*) قد ألمح الزمخشري الى تسمية هذا النوع من الاستعارة في الحرف بالتصريحية في كشافه وذلك في تحليله للام الواردة في قوله تعالى :« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً..» ٣٠٩/٣ ، وقد ورد في القرآن كثير من الايات استعملت فيها الحروف ، استعمالا استعارياً . ينظر للمثال السور الاتية : البقرة : ٥ ، ١٣٧ ، ١٧٦ ، ٢٠٨ . وآل عمران : ١٦٤ . والانعام : ٧٤ ، ٩٣ ، ١١٠ . والاعراف : ٦٠ ، ٦٦ ، ١٨٦ ، ويونس ، ١١ . وهود: ١٧ ، ٢٨ ، ٦٢ ، ١١٠ ، ١١١ . والحج : ٦٧ والنمل : ٧٩ . ولقمان : ٥٠ وسبأ ، ٢٤. وغيرها من السور الكريمة .

أصبح وكأنه أوعية لهم ، متلبس فيهم ، متمكن منهم أشدّ التمكين ، وهو تصوير يوحي بشدة اتهامهم للرسل المكرمين بالضلال ، وشدة الغضب عليهم ، وقوة دافع الانتقام منهم ، وبهذا تتناسق هذه الاستعارة الحرفية مع سياق الاية ، فهي منبثة كاشفة عن نفوس الكافرين الممتلئة تبجحاً وغروراً وضلالا ، على نحو واضح مصور ، لاجزاء لهم عليه إلا عذاب جهنم .
ثم تأتي الأداة (لو) كاشفة عن حسرة الكافرين أصحاب السعير وعذابهم بعد إعترافهم بكفرهم بالله وبرسله وبالعذاب الذي لم يصدّقوا بوقوعه : «وقالوا لو كنا نسمعُ أو نعقلُ ماكُنّا في أصحاب السعير. فأعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير» .

فالكفر صورة من صور الطمس والإرتداد على الأدبار ، وتعطيل — كما بيّنت الاية — لقوى الإدراك في الإنسان ، وهي قوى هادية الى بارئها المالك القدير ، وهي تنجي من عذاب جهنم . والسياق يستعمل الأداة (لو) وهي حرف امتناع لامتناع — على لسان الكافرين وهم في مثواهم جهنم ، ولهذا الأستعمال نكتة بيانية تتعلق بحالهم النفسي ؛ إذ فيها ايحاء شديد بالندم والحسرة على ما انتهوا إليه من مصير ، والنفي (ماكنا في أصحاب السعير) فيه اعتراف وتحسر على أنفسهم ، ويصعد السياق معنى التحسر والاستهزاء بهم وعلى لسانهم — بالأستعارة التهكمية (أصحاب) ، لأن أصحاب تستعمل أصلا في مجال الخير والصدق والكرم ، جاء في أساس البلاغة : « صحبه فأحسن صحابته ، وصاحبه صحاباً كريماً ، واصطحبوا وتصاحبوا ، وهما خير صاحب ومصحوب ، ووجدته صاحب صدق.» (١) وهذا النوع من الإستعارة يقوم على « استعارة اسم أحد الضدين او النقيضين للاخر بواسطة إنتزاع شبه التضاد وإلحاقه بشبه التناسب بطريق التهكم » (٢)

---

(١) للزمخشري ، مادة (صحب) ، ص ٢٤٩ .
(٢) مفتاح العلوم ، للسكاكي ، ص ١٧٧ .

فالاستعارة تحقق دلالتها البليغة المؤثرة في المتلقي ، إذ أن التضاد الحاصل عن طريق العكس في الكلام يحقق إيصال معنى الاية على نحو أشد وقعاً ، وأكثر ألماً في النفس المتلقية لما فيه من إظهار التحسر والندم ، كما ان الاستعارة تشير إلى ان الكافرين هم الجديرون بجهنم وعذابها ، فهي خير صاحب لهم وصديق ، وإن كانت بئس الصاحب وبئس الصديق .

«فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير» .

قال الطبري : « فأعترفوا بذنبهم : فأقروا بذنبهم ... فسحقاً لأصحاب السعير : فبعداً لأهل النار» (١) . وقال الزمخشري : « بذنبهم : بكفرهم في تكذيبهم الرسل (فسحقاً) أي : فبعداً لهم ، اعترفوا أو جحدوا ، فإن ذلك لا ينفعهم» (٢) .

و« سحقاً» جملة انشائية دعائية من الله عليهم بعد اعترافهم بذنبهم ، والدعاء من الله قضاء . أي : « أبعدهم الله من رحمته وسحقهم سحقاً» (٣) وايقاع لفظة (سحقاً) طاقة مضافة في التعبير ، فهي تصور المعنى بجرسها الموسيقي فيتناسق مع السياق ويتسق في تصعيد العذاب وشدته على هؤلاء الكافرين الذين لارجاء لهم في مغفرة ، ولامأوى لهم إلا السعير ، فهم أصحابها الملازمون لها .

ثم تأتي الصورة المقابلة (*) لصورة جهنم وأصحابها الكافرين ، صورة الذين يخشون ربهم بالغيب ومايالونه من مغفرة وأجر كبير ، على طريقة

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٤/٢٩ .
(٢) الكشاف : ٤٦٤/٤ .
(٣) صفوة التفاسير : ٤١٧/٣ - ٤١٨ .
(*) المقابلة والطباق بمعناهما واحد . ويراد بهما اشتمال التعبير على كلمتين متضادتين أوجملتين متقابلتين . ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب : ٥١/٢ . ومابعدها .

القرآن في تقابل الصورتين (**) : صورة العذاب (ترهيباً) ، وصورة النعيم : (ترغيباً) :

« إن الذين يخشَوْن ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير)».

والتقابل بين الصورتين المتضادتين يجلي تمايزهما على نحو عميق ، ويعمل بصورة حيوية فاعلة على جلاء المعنى وتقريره في النفس المتلقية لإحداث الاستجابة النفسية (ترهيباً وترغيباً) لأهداف القرآن ومقاصده .

وانسجاماً مع معنى خشية المؤمنين من الله (بالغيب) أي : « يخافون ربهم بالغيب وهم لم يروه» (١) ، تأتي الاية بعدها متعلقة بها ، وقد وظف (الطباق) لجلاء المعنى وتوكيده :

«وأسروا قولكم أو اجهروا به إنهُ عليم بذات الصدور»

والتضاد الحاصل بالطباق بين الفعلين (أسروا) و(اجهروا) من شأنه أن يجلي حقيقة علم الله المطلق ، ويؤكدها في النفوس والقلوب ، من خلال ابراز التناقض بين الفعلين بوصفه وسيلة حيوية للإبانة عن الشيء . فالله ـ سبحانه ـ يتساوى عنده السر والجهر ، بل إن علمه يتجاوز السر إلى ماهو أخفى منه « إنه عليم بذات الصدور» أي : عليم « بضمائر الصدور التي لم يتكلّم بها » (٢) فهو يعلمها ، ويعلم خلجات الشعور ، وماهو ملازم للصدور .. فالطباق فضلا عن قوله : « إنه عليم بذات الصدور» الذي يتآزر في الاية مع الطباق في الإبانة والكشف عن حقيقة علم الله المطلق ، الذي لايند عنها شيء مهما كان خفياً . وهو معنى كبير يعمل ـ متى ما استقر في القلب والنفس وهو مايهدف إليه القرآن ـ على بعث الرقابة الدائمة

(**) ينظر مثلا السور الاتية : البقرة ، آية ٢٥ ـ ٢٦ ، ٣٩ : ٤٠ . النساء ـ ١٤ ـ ١٥ ، ٥٧ ـ ٥٨ . المائدة : ١٠ ـ ١١ ـ الكهف : ٣٠ ـ ٣١ . الدهر : ٥ ـ ٦ ومابعدها وغير ذلك كثير .

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩ / ٥ .

(٢) المصدر نفسه ، المكان نفسه .

والتقوى من الله ، فلا يكون من الانسان الذي اختاره الله للابتلاء والأختبار إلاّ الخير الدائم الموصول .

وتوكيداً لهذه الحقيقة — حقيقة علم الله المطلق — التي يجهلها الجاهلون ، وينكرها المنكرون ، يوظف السياق أسلوب الإستفهام :

«ألا يعلمُ من خلَقَ وهو اللطيف الخبير» .

فالاستفهام (ألا يعلمُ مَنْ خلَقَ) خرج إلى معنى الإنكار والتعجيب من المنكرين ، أي : « ألا يعلم الخالق مخلوقاته ؟ كيف لا يعلم من خلَق الأشياء وأوجدها سرَّ المخلوق وجهره ؟ (وهو اللطيف الخبير) أي والحال أنه اللطيف بالعباد ، الذي يعلم دقائق الأمور وغوامضها ، الخبير الذي لا يعزب عن علمه شيء ، فلا تتحرك ذرة ، ولا تسكن أو تضطرب نفس إلا وعنده خبرها » (١) فالاستفهام فضلا عن أنه أداة حيوية للإثارة والتنبيه على حقيقة علم الله المطلق لما يثيره في العقول والنفوس من تساؤل ، فإنه كذلك أوحى بالإنكار والتعجب ، فهو إنكار على المنكرين الذين يَسْتخْفُونَ بأقوالهم وأفعالهم ظناً منهم الإفلات من علم الله المحيط ، وهو تعجيب ممّن يظنّ أن الحقيقة كذلك فاللهُ خبير بما يعملون ، ولا يندّ عن علمه كلّ خاف ومستور .

ولا يخفى أن في الاية والتي سبقتها — كذلك — ايحاء التحذير والتهديد بالكافرين المنكرين الذين لا يؤمنون .

ومن دلائل قدرته في ملكه وامتنانه على العباد قوله :

« هو الذي جعل لكم الأرضَ ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» .

---

(١) صفوة التفاسير : ٤١٨/٣ .

نلحظ عدة ظواهر بلاغية في تركيب الاية تضافرت على توصيل المعنى توصيلا فنياً جمالياً . والظواهر البلاغية تمثلت في الاستعارة المكنية (الأرض الذلول) والكناية في (مناكبها) ، والتقديم والتأخير في (وإليه النشور) ، فضلا عن فعلي الأمر (فأمشوا) و(كلوا) اللذين أكدا بما خرجا إليه من معنى مجازي فكرة (الامتنان والاعتبار) ، ، امتنان الله — سبحانه — بمصادر الرزق على العباد لعلهم يعتبرون ، وإليه يهتدون (*) .

والاستعارة المكنية (الأرض الذلول) استعارة بديعة موحية ، وفيها تشبيه الأرض بدابة ذلول ثم حذف المشبه به (المستعار منه) وأبقى خاصية من خواصه (ذلولا) على سبيل الاستعارة المكنية . فالذلول صفة من صفات الحيوان ، كما جاء في القرآن : «أوَ لَمْ يَرَوا أنّا خَلَقْنا لهم ممّا عَمِلَتْ أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون . وذلّلْناها لَهُمْ فمنها رَكوبُهُمْ ومنْها يأكلون» (١)، يقال : «بعير ذلول . وفرس ذلول . إذا أمكن من ظهره ، وتصرّف على مراده راكبُه . وضدّ ذلك وصفهم للمركوب المانع ظهره ، والممتنع على راكبه بالصّعَب والمصعَب . والمعنى : أنه سبحانه جعل الأرض للناس كالمركوب الذلول ، ممكنة من الإستقرار عليها ، والتصرّف فيها ، طائعة غير مانعة ، ومذعنة غير مدافعة» (٢) . فإخراج صورة الأرض بالدابة الذلول صورة موحية بالعطاء المتجدد الذي لا ينفد ، وهي وإنْ كانت تبدو إستعارة قريبة ، فإنّ فيها من المعاني الكثيرة التي تكثّفت في صفة (ذلولا) إذ تتجدد معانيها مع الزمن ، بتجدد عطاء الأرض في الوان النعيم والخيرات. والكناية في الآية (مناكبها) موحية بفرط التذليل الرحيم . قال الزمخشري : «المشي في مناكبها : مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية ، لأن المكبين وملتقاهما من

(*) وفي الاية حسن تقسيم بديع في إخراج المعاني وتوصيلها الى القارىء أو السامع .

(١) سورة يس ٧١ — ٧٢ .

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي ، ص٣٤٠ .

الغارب أرق شيء من البعير وأنباه عن أن يطأه الراكب بقدمه ويعتمد عليه، فإذا جعلها في الذل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك. وقيل: مناكبها: جبالها. قال الزجّاج: معناه سهّل لكم السلوك في جبالها، فإذا أمكنكم السلوك في جبالها، فهو أبلغ التذليل (١).

فالإفراط في التذليل لخيرات الأرض للإنسان رحمة من الله سبحانه ـ، وإذا كان معنى الأرض الذلول يعني في أذهان القدامى، معاني قريبة، كتذليل السير فيها، في برها وبحرها، واستغلال مواردها القريبة التي تتمثل في الزرع والحصاد... فإن العلم اليوم فضلاً عن هذه المعاني اهتدى إلى أشياء وألوان من الخيرات التي لم تكن لتخطر في بال القدامى. لذلك فالعلم في كل يوم يكشف جانباً كان خفياً في النص القرآني في الفهم والإدراك لمعنى التذليل والتسخير للأرض.

وهذه الأرض الذلول التي تدر بألوان شتى من النعم الظاهرة والباطنة على هذا الإنسان برحمة الله التي هيّأت الأسباب الكفيلة ليواصل الانسان حياته عليها ترتبط بغاية حكيمة تنتهي اليها، وهي تمثّل صورة من صور الابتلاء المذكورة في بداية السورة:

«واليه النّشور»

بتقديم الخبر (اليه) وهو المسند على المبتدأ (النشور) وهو المسند اليه، وقد أفاد هذا التقديم التخصيص، فالنشر لايكون إلاّ إلى الله وحده ـ سبحانه ـ فيسأل عباده عن شكر ما أنعم به عليهم.

ولهذا التقديم أثره النفسي في المتلقي، لأن الهدف من التقديم هو التركيز على المقدّم، والاهتمام به، والتفكير فيه، والتركيز النفسي عليه، لأنه الأهم، ولأنه أول ما تقع عليه العين فتتأثر به.

---

(١) الكشاف: ٤/ ٤٦٥.

فالتقديم في الآية بلاغته ودلالته ، وهو ليس تقديماً من أجل الفاصلة فحسب ، وإنما هو تقديم من أجل المعنى قبل كل شيء وهو : تخصيص النشر بالله وحده دون غيره ، فضلاً عن الايقاع الفريد الذي أحدثته الفاصلة انسجاماً مع ايقاع السورة وجرسها الصوتي ، فليس رعاية الفاصلة هي التي اقتضت هذا التقديم ، وإنما اقتضاه المعنى في السياق اولاً ، ومنطق الإعجاز في القرآن يقتضي : «أنه ما من فاصلة قرآنية لا يقتضي لفظها في سياقه ، دلالة معنوية لا يؤديها لفظ سواه» (١) وليس في هذا الكلام تهوين من «قيمة التآلف اللفظي والإيقاع الصوتي لنسق القرآن الباهر الذي نجتلي فيه فنية البلاغة ، تؤدي المعنى بأرهف لفظ وأروع تعبير وأجمل إيقاع . فالبلاغة من حيث هي فن القول ، لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه ... وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر» (٢) ..

ثم تأتي الآيات الأخرى بصياغتها الاستفهامية لتشكل طباقاً ضمنياً مع ما سبق من آية الأرض الذلول ، فيتجلى بهذا الطباق معنى قدرة الله بعمق — موضوع السورة الرئيس — وهي تفعل ما تشاء . كما يكشف الطباق بجلاء ضعف الانسان وعجزه أمام المالك القدير .

فمن شأن الطباق أن يثير التأمل والتفكير في المتلقي ، إذ يبعث فيه معاني تلك القدرة العظيمة التي لا تحدها حدود ولا تقيدها قيود ، فتجعله لا يستكين إلى الرزق القريب الأسباب الذي تمدّه به الارض الذلول التي إذا شاء الله أن يهزّها من تحته ، ويُمَوِّر السماء من فوقه ...

والاستفهام المتكرر مع الانكار والوعيد والتهديد يلقي في عقل المتلقي وحسه تلك المعاني والايحاءات بقوة تأثير تجعله دائم التوفز والحركة والخشية :

---

(١) الأعجاز البياني للقران ، ص٢٥٨ .
(٢) الاعجاز البياني للقرآن ، ص٢٥٨ .

«ءأمنتم مَنْ في السماء أنْ يخسف بكم الأرضَ فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أنْ يُرسلَ عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير . ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير» .

الآيات وعيد للكفار المكذّبين (١) الذين قلوبهم في أكنّة ، وفي آذانهم وَقْر ، وعلى أبصارهم غشاوة . والآيات تمثل مطارق متوالية على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم لإيقاظها ، فهي معطّلة ، ليطّلعوا على الحقيقة التي هم عنها غافلون لاهون . فالآيات تهديد وإنكار ووعيد .

وقد ساهم الأسلوب الاستفهامي بحيوية وقوة تأثير في إخراج المعاني ، والاستفهام يتمثل بالأداة (الهمزة) في : «أأمنتم ... أم أمنتم ..» ، والأداة (كيف) في (فكيف كان نكير) . وصعّد من ايحاء الإنكار والتعجيب الذي أوحى به الاستفهام وتواشج معه أسلوب التهديد والوعيد المتمثل في (فستعلمون كيف نذير) .

وهذه المعاني المجازية من شأنها أن تفتح المنافذ أمامهم هنا وهناك للتفكير والتدبر . فهذه الأرض التي جعلها الله « ذلولا » يمشون فيها مطمئنين ، إذا شاء الله جعلها (تمور) أي : «تضطرب وتهتز بهم هزّاً شديداً عنيفاً» (٢) فيخسفها بهم كما خسفها بقارون (*) ، او يرسل عليهم (حاصباً) أي حجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل» (**) (٣) .

فالاستفهام بالهمزة هو إنكار وتعجيب ، إنكار كفر الكافرين ، والتعجيب منهم ، فهم يأمنون مكر الله وعذابه ، ويطمئنون إلى هذه الحياة دون التطلّع إلى ايمان وشكر وحياة أخرى . والاستفهام بـ (كيف) خرج إلى التهديد والوعيد بهم عند معاينتهم لعذاب الله وعقابه .

---

(١) ينظر : صفوة التفاسير : ٣/ ٤١٨ .
(٢) صفوة التفاسير : ٣/٤١٨ .
(*) ينظر سورة القصص ، آية : ٨٢ .
(**) ينظر : سورة هود ، آية ٨٣ في شأن قوم لوط . وسورة الفيل ، آية : ٤ .
(٣) ينظر : صفوة التفاسير :٣/٤١٨ .

وها هي مصارع الغابرين ، وما حاق بهم من عذاب وعقاب فذاقوا وبال كفرهم :

«ولقد كذّب الذين من قبلهم فكيف كان نكير»

ومصارع الغابرين الكافرين المكذّبين تنطق بآثارها بما تثيره في الحس والوجدان من قصص دالة على مصير الكافرين ، بسبب الكفر الذي أحلّ بهم عقاب الله وعذابه . والاستفهام بـ (كيف) : (فكيف كان نكير؟) خرج إلى الإنكار وتعظيم عذابهم ، انكار الله — سبحانه — كفرهم وتكذيبهم بعقابه ،كمايوحي الاستفهام بشدة العذاب الذي حاق بهم فهو غاية في الهول والفظاعة .

فالاستفهام أكسب المعنى خصوبة وامتلاءاً ، فهو مشحون بالايحاءات المحذّرة المنذرة من الكفر وعاقبته الوخيمة التي تؤدي إلى نار جهنم التي سبق وصفها الفظيع في السورة .

ولاشك في أن اسلوب الاستفهام الذي أخرج المعاني بهذه القوة التعبيرية الفنية المؤثرة ، هو في الوقت نفسه تسلية للرسول الأمين — صلى الله عليه وسلم — الذي جاهد نفسه مع هؤلاء الكافرين جهاداً كبيراً ، فالله هو القادر على كل شيء ، وأن الكافرين الجاحدين بقبضته — سبحانه — لا يفلتون منه .

وجلي أن الطباق الضمني بين آية الأرض الذلول بوصفها صورة من صور الرحمة الإلهية ، وبين الآيات الثلاث بعدها بوصفها صورة من صور العذاب والعقاب الإلهي ، يُجلّي وعلى نحو عميق المعنى الكبير الذي يتصل بمطلع السورة ، وهو قدرة الله وعظمته ،فهو بيده الأمر وهوعلى كلّ شيء قدير. ومن خلال تطابق الصورتين المتضادتين يتجلى — أيضاً — ضعف الانسان وعجزه أمام الله الذي يفيض برحمته على هذا الانسان الذي يكفر ولا يشكر ،

فيبدو الكفر غاية في البشاعة والجحود إزاء رحمة الله ورعايته وبركته ، وهذا معنى يوحي به الطباق الضمني لتفظيع الكفر وعاقبته الوخيمة .

ومن صور الرحمة الإلهية في ملكه ، رحمته بالمخلوقات الأخرى ، وقد ذكر السياق منها (الطير) ، فقد هداها الله لما خلقها ، ودبّر لها وقدّر ما تحتاج اليه برحمته ورعايته :

«أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى الطّير فوقَهم صافّات ويقبضْنَ ما يُمسكُهُنّ إلاّ الرحمن إنّه بكل شيءٍ بصير» .

نلاحظ الاستفهام (بالهمزة) ، وقد خرج معناه إلى (التوبيخ والتعجيب) ، تعجيب المخاطب من حال الطير وهو سابح في جو السماء بقدرة الله ورحمته ، كما يوحي الاستفهام بالتوبيخ ، توبيخ الإنسان على غفلته عن هذه الآية — آية الطير — التي لفت اليها اسلوب الإستفهام لفتاً قوياً ، فهي تدلّل على عظمة الخالق ورحمته بمخلوقاته .

فالاستفهام في الآية أداة فاعلة في إثارة عقل المتلقي وحسه ووجدانه ليتأمل هذه الآية العجيبة ويتدبّر . وقد ساهم فن الطباق بين (صافّات) و (يقبضن) في تصوير هذه الآية ،وهو طباق دقيق في وصف عملية الطيران ، اذا طابق بين (صافات) اسم فاعل، وبين الفعل (يقبضن) ولم يقل(قابضات) كما قال (صافّات) ، وقد كشف الزمخشري عن سرّ هذا الطباق بقوله : فإن قلت : لم قيل : ويقبضن ، ولم يقل : قابضات ؟ قلت : لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة : لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والأصل في السباحة مَدُّ الأطراف وبسطها ، وأمّا القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارىء غير أصل بلفظ الفعل ، على معنى أنهن صافّات ،ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح» (١)، فلما كان الغالب في عملية الطيران هو «فتح الجناحين فكأنه هو الثابت عبّر

(١) الكشاف : ٤/٤٦٥ .

عنه بالأسم (صافّات) وكان القبض متجدداً عبر عنه بالفعل (ويقبضن).»(١).
واختيار هذه الألفاظ المعبّرة المتناسبة مع الحدث هي من صفات القرآن ، فهو «شديد الدقة فيما يختار من لفظ ، يؤدي به المعنى» (٢) أكمل أداء ، وأجلى تصوير ، ليشعر به السامع أتمّ شعور وأقواه .

فدلالة الطباق في تصوير حركة الطير الخارقة في الجو التي تقع في كل لحظة تشي بالقدرة و العظمة يدعو القرآن المتلقي لتدبرها ، كما يوحي الطباق ايحاء الجمال والكمال في حركة الطير وهو يسبح في جو السماء بيسر وسهولة الكمال في الخلقة ، خلقة الطير ، والجمال المستمد من حركاته من تحليق وانخفاض وارتفاع . فالصورة بالاسلوب الاستفهامي والطباق فضلاً عن أنها مدعاة للتفكير والتدبر ، فإنها كذلك مدعاة للمتعة والترويح في مشاهدتها والتأمل فيها .

والكمال يتجلّى في تدبيره — سبحانه — وتقديره :

(ما يمسكهن إلاّ الرحمن)

بما دبّر — سبحانه — من نواميس في جوّ السماء وقدر ، وبما هيّىء للطير من خلقه على «شكل وخصائص تأتي منها الجري في الجو) إنه بكل شيء بصير) يعلم كيف يخلُق وكيف يُدَبر العجائب» (٣) ، فهو البصير ، بمخلوقاته ، ورحمته بها لا تغيب أبداً ، فهو (الرحمن).

ثم يعود سياق السورة وبأسلوب الاستفهام الذي يشكّل ظاهرة بلاغية بارزة فيها ، ليثير العقول ، ويلفت الانتباه بقوة إلى الحقائق التي عالجتها السورة ، ومنها على نحو خاص : حقيقة (القدرة والإرادة) التي يغفل عنها الكافرون :

---

(١) صفوة التفاسير : ٤١٩/٣
(٢) من بلاغة القرآن ، أحمد بدوي ، ص٥٨ .
(٣) الكشاف : ٤٦٥/٤ .

«أمْ مَنْ هذا الذي هو جند لكم ينصرُكُم من دون الرحمن ؟ إن الكافرون إلاّ في غرور . أمْ من هذا الذي يرزقكم إنْ أمسكَ رزقَهُ ؟ بل لجوُّا في عُتُوٍّ ونفور . أفَمن يمشي مُكباً على وجهه أهدى ؟ أمْ مَنْ يمشي سوياً على صراط مستقيم» .

فبعد أنْ خوّف اللهُ الكافرين بخسف الأرض الذلول من تحتهم ، وبإرسال الحاصب من فوقهم ، وبمصارع الغابرين من الكافرين الضالين من قبلهم ، يعود سياق السورة يخوّفهم مرة أخرى بعد أن عرّفهم بقدرته وتدبيره ورحمته من خلال مشهد الطير السابح في جو السماء ، يخوفهم بقوته — سبحانه — وبأسباب الرزق القريبة التي بين أيديهم يستمتعون .

(أَمْ مَنْ هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن)

الاستفهام خرج إلى الإنكار ، وفيه ايحاء التوبيخ والتهديد . إنكار أن يكون للكافرين أنصار يدفعون عنهم العذاب . وفي الوقت نفسه هو توبيخ على أوهامهم وغرورهم ، وتهديد لهم بعذاب الله وعقابه .

«إن الكافرون إلاّ في غرور » . وأسلوب القصر (بالنفي والاستثناء) يفيد اختصاص الكافرين بالغرور ، فقد قصرهم في دائرة الغرور لايتعدون إلى غيرها ، وزاد التعبير قوة وحيوية الحرف (في) فقد شخص الكافرين وهم مغموسون في غرورهم ، بل يخرجهم التعبير القرآني في صورة الغرور ذاته ، وماغرورهم إلا « ظنهم أن آلهتهم تقربهم إلى الله زلفى وأنها تنفع أو تضر» (١) . وهذا جهل عظيم منهم ، وضلال مبين ينكره القرآن بالاسلوب الاستفهامي أشد الإنكار .

«أمنْ هذا الذي يرزقكم إنْ أمسكَ رزقه بل لجّوا في عُتُوٍّ ونفور».

الاستفهام بالهمزة خرج إلى الإنكار ، وفيه ايحاء التهديد والتوبيخ

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٦/٢٩ .

كالاية السابقة ، وهذا التكرار بالاسلوب الاستفهامي والمعاني والايحاءات من شأنه أن يعمق المعنى ويرسخه في أذهان المتلقين وعقولهم ... لإحداث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن .

فالاستفهام هو إنكار أن يكون لهم رازق غير الله ، وينكر عليهم أوهامهم وضلالهم ، وهو — أيضاً — توبيخ لهم وتهديد ، من عتوهم ونفورهم عن الحق والهداية . ورزقهم هو بيد الله — سبحانه — يفيض به عليهم برحمته ، ولوشاء لأمسك عنهم الرزق فسلب منهم الحياة التي وهبهم والطباق في الاية بين (يرزقكم) و(أمسك رزقه) يعمق الفكرة ، إذ الطباق بين الرزق وعدم الرزق من شأنه أن يلفت انتباههم إلى الحقيقة التي عنها يغفلون ، فبالتضاد تتمايز الأشياء وتتجلى للعقل والفكر والحس فيحقق التعبير هدفه في عقل المتلقي ونفسه ...

ولكن الكافرين في عتوهم ونفورهم مغموسون يتفكرون ولايتدبرون ولهذا فإن تركيب الاية يستعمل (بل) :

« بل لجوا في عتوٍّ ونفور»

و (بل) هنا تفيد الإضراب ، والإضراب هو : الانتقال من أمر إلى أمر هو أشد منه ، أي : الانتقال من حالة إلى حالة أشد منها وأدعى للتوبيخ والتقريع . فالكافرين فضلا عن أنهم لايتفكرون ولايتدبرون بأسباب الرزق التي يسّرها اللهُ لهم ، فهم في حالة أكثر فظاعة وأشد سوءاً ، وهي أنهم قد «تمادوا في طغيان ونفور عن الحق واستكبار» (١) فالتعبير القرآني يكشف على نحو جلي حقيقة نفوس الكافرين المعرضة عن الحق المستكبرة ، فهم قد تلبّسوا — كما يُصور الحرف في — في طغيان عات ، وفي إعراض نافر عن الحق والهدى .

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٦/٢٩.

ولبيان حالة الكافر ، وحالة المؤمن ، فإن سياق السورة يوظف الاستعارة التمثيلية المصوّرة للمعنى في كلتا الحالتين ، وفي إطار الأسلوب الاستفهامي الإنكاري الذي يقابل بين الحالتين المتضادتين ممّا يزيد التعبير الاستعاري خصوبة وحياة . فالاستفهام(أداة حيوية فاعلة في الإثارة والإيقاظ ، والمقابلة تعمل على توكيد المعنى وتقويته في نفس المتلقي وعقله فيتأثر به أبلغ تأثير .

أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أمْ من يمشي سويّاً على صراط مستقيم» .

فالاستفهام بالهمزة خرج إلى الإنكار ، إنكار أن يستويا مثلا في حياتهما ويوحي الاستفهام — كذلك — بإيحاء التعجيب ، التعجيب ممّن يجعلهما يستويان .

والاستعارة التمثيلية هي «مثل للمؤمن والكافر» (١) على وجه التصوير الحسي ، إذ استعار التعبير القرآني للكافر التركيب (يمشي مكبّاً على وجهه) ، واستعار للمؤمن التركيب (يمشي سوياً على صراط مستقيم) . ويجلي التركيبان المستعاران حقيقة كل منهما أجلى بيان للعين والفكر . فالكافر بالاستعارة التي بثت الحياة في مفاصل الصورة جسّدت حقيقة الكافر وقرّبتها بالطريقة الحسية الموحية الأكثر تأثيراً من الطريقة الذهنية التجريدية في الحس والوجدان وذلك لما فيها من «البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار» (٢) فالانكباب على الوجه يوحي بالتعثر والاضطراب والعمى ، وكذلك الكفر فهو حاجب أبصار القلوب عن إدراك الايمان والهدى ، فالكافر كالاعمى الماشي على غير هدىً وبصيرة .

والمشي سوياً على صراط مستقيم يستند إلى النور ، وهو الإيمان الذي تحول بالصورة الحسية إلى حالة مجسدة لصاحبه ، فهو النور الكاشف الهادي للطريق كما تهدي الأسرجة المنيرة جوانب الطريق للسائرين فيه فلا يضلون ولا يتنكّبون في ليل الكفر والضلال ، فهم على هدىً وبصيرة .

---

(١) الكشاف : ٤٦٦/٤ .

(٢) النكت في اعجاز القرآن ، ص٩٢ .

فالتصوير الاستعاري يحملنا عمداً على تخيل صورة جديدة لحال المؤمن من جهة ، وحال الكافر من جهة أخرى . وهذه هي فضيلة الاستعارة الجامعة تتمثل في أنها «تبرز البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً» كما يقول عبدالقاهر الجرجاني (١) .

ثم يذكر تعالى الإنسان وبخاصة — الكافرون الجاحدون — بنعمه الجليلة التي أنعمها عليهم ، ليعرفوا فضل الله عليهم ، وليعرفوا قبح ما هم عليه من الكفر والضلال ، فهم قد قابلوا نعم الله وما وهبهم من وسائل الهدى وأدوات الإدراك التي عطّلوها فلم ينتفعوا بها ، قد قابلوها بالكفر والإعراض وعدم الشكر :

«قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون» .

استهلال الآية بفعل الأمر (قل) له دلالته وبلاغته في سياق الآية ، فمعناه على وجه الإلزام والوجوب (*) . لأن حقيقة أن الله أنشأ الانسان من العدم بقدرته لا يشك فيها العقل البشري على وجه الإلزام والوجوب . والتأمل في خلق الانسان (المادي والروحي) كما ذكّر القرآن بذلك فضلاً عن تأمل العالم والطبيعة يوصل إلى الايمان بالله الخالق العظيم على وجه اليقين .

وتوكيداً لهذه الحقيقة وترسيخاً لها في أذهان المتلقين ، فقد بُنيَ تركيب الآية على تقديم المسند اليه (هو) على الخبر الفعلي (أنشأكم) . وهذا البناء في التركيب من شأنه تقوية الحكم وتقريره ، لأنه «يجري في المقامات التي تدعو

---

(١) أسرار البلاغة ، ص٤٠١ .

(*) كما ان صيغة الفعل (قل) قد ترددت اكثر من ثلاثمائة مرة في القرآن الكريم لتؤكد — والله أعلم بمراده — أن هذا القران من عند الله وان الرسول — صلى الله عليه وسلم مبلغ أمين عن ربه ليس له علم أن يزيد او ينقص أو يحذف أو يهمل أمراً او حكماً ...

إلى التوكيد والتقرير مثل مواجهة الشك في نفس المخاطب والرغبة في إقناعه ، ومثل ردّ الدعوى التي يدّعيها المخاطب ... وغير ذلك من مقامات التقوية والتقرير» (١) .

والآية قد ذكرت بالترتيب : (السمع والأبصار والأفئدة) وهي وسائل الهدى والإدراك . وقد لحظ بعض العلماء هذا الترتيب والتقديم في الآية ، انطلاقاً من أن القرآن الكريم قد «وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب» (٢) ، فهو يقدّم الألفاظ أو يؤخرها حسبما يقتضيه المقام ولفائدة معنوية ، فقالوا : إن القرآن قد قدّم السمع على البصر لأن السمع افضل (٣) ، والظاهر : «أن السمع بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله . والأعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة. فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصم . فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع اولى» (٤) . وذكروا غير ذلك من الأسباب (٥). وأفضلية السمع على البصر ملحظ لطيف تؤيده الكشوفات العلمية الحديثة وتؤكد مدلوله . فهو إعجاز من إعجازات القرآن العلمية .

ونعمة الايجاد والإنشاء لهذا الإنسان من العدم تستلزم الشكر ، فهي نعمة عظيمة ، ولكن الشاكرين قليلون وعلى وجه من التوكيد :

«قليلاً ما تشكرون»

إذ أفادت (ما) في التركيب توكيد هذه الحقيقة ، أي قلّما تشكرون ربكم على نعمه التي لا تحصى ، قال الطبري : «قليلاً ما تشكرون ربكم على هذه النعم التي أنعمها عليكم» (٦) .

(١) خصائص التراكيب ، د.محمد أبو موسى ، ص١٧٠ .
(٢) التعبير القرآني ، د.فاضل صالح السامرائي ، ص٥١ .
(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن ، للزركشي : ٢٥٤/٣ .
(٤) التعبير القرآني ، ص٥٣ .
(٥) المصدر نفسه ، المكان نفسه .
(٦) جامع البيان في تفسير القرآن : ٧/٢٩ .

ثم تأتي الآية بعد ذلك تذكّر الإنسان أن إنشاءه والخصائص والنعم التي وهبه الله إياها بقدرته ورحمته ، إنما هي للابتلاء والاختبار في هذه الحياة الدنيا التي بعدها حساب وجزاء ، فالحياة ليست عبثاً لغير قصد أو غاية :

«قل هو الذي ذرأكم في الأرض واليه تحشرون»

فالخلق أو الذرأ في الأرض حقيقة يعيشها الانسان من فضل الله ورحمته ، وفعل الأمر (قل) يفيد الإلزام والوجوب لأنها حقيقة لا شك فيها ، فالله — سبحانه — هو الذي خلق الإنسان ، وهيىء هذه الأرض ويسّر فيها الحياة بما أودع فيها من النعم التي لاتُحصى ، ويسّر فيها للانسان الحركة والانتشار. ويقرّر هذه الحقيقة ويؤكدها تقديم المسند اليه (هو) على الخبر الفعلي (ذرأكم).. وفي الآية اكثر من ظاهره بلاغية منحتها قوة تعبيرية في أداء المعنى وتوصيله إلى القارىء او السامع . فنلمح في الآية الطباق بين (ذرأكم) و (تحشرون) ؛ لإن الذرء وان كان بمعنى الخلق الاّ انه افاد معنى (الانتشار) والحركة في أرجاء الأرض . والطباق بما فيه من تضاد بين المعنيين فإنه يعمل على تعميق المعنى وترسيخه في ذهن المتلقي وحسه ووجدانه ، فيكون الطباق وسيلة حيوية فاعلة في تقرير هذه الحقيقة والتذكير بها ، حقيقة أن بعد الخلق والنشر في الأرض ، والتمتع بنعمها غاية تنتهي اليها : وهي الحشر ثم الجزاء . وخصّص أسلوب التقديم والتأخير حقيقة الحشر إلى الله وحده دون غيره :

«واليه تحشرون» .

وهذه حقيقة لا شك فيها ، ولكن الكافرين الشاكين المرتابين لا يؤمنون بها :

«ويقولون متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين» .

والاستفهام بـ (متى) يكشف عن حقيقة نفوس الكافرين الذين لا يؤمنون . فالاستفهام خرج إلى معنى الإستبعاد والإنكار ، فهم ينكرون الحشر والجزاء الذي يُجزَون فيه عما عملوا في الحياة الدنيا . والاستفهام يوحي — كذلك — باستهزائهم وسخريتهم من الحشر والجزاء ، أي : « يكون الحشر والجزاء

الذي تعدوننا به ؟ إن كنتم صادقين فيما تخبروننا به من مجيء الساعة والحشر ؛ وهذا استهزاء منهم» (١) .

ولبيان حقيقة علم الساعة والحشر التي يشك فيها الكافرون ، فإن السياق القرآني يوظف اسلوب القصر بـ (إنما) مرتين لتأدية المعنى بدقة ووضوح : «قل إنما العلمُ عند الله وإنما أنا نذير مبين»

فقد خصّص اسلوب القصر (العلم) بالساعة وميقاتها بالله وحده لا تتعداه إلى غيره ، فالعلم بها عنده وحده دون الخلق جميعاً .

وخصص اسلوب القصر (الانذار) والبيان على الرسول محمد — صلى الله عليه وسلم — :

«وإنما أنا نذير مبين»

أمّا العلم بالساعة والحشر فعند صاحب العلم الواحد الذي لا شريك له . فأسلوب القصر في هذا السياق أكد المعنى ، وأخرجه على نحو من الدقة والتحديد ، فعلم الساعة عند الله فلا يعلمها إلاّ هو ، ولا يُجَلّيها لوقتها إلاّ هو ، فهو المالك القادر . وأمّا الرسول — صلى الله عليه وسلم — فله وظيفته : الإنذار المبين الواضح لا يتعداه ، بل إنّ التعبير القرآني يشخص الرسول في صورة المنذر لا يتعدى إلى شيء آخر توكيداً للمعنى على نحو من الوضوح الذي لالبس فيه ، وتفريقاً دقيقاً بين معنى الحقيقتين اللتين يهدف اليهما القرآن . وتخويفاً من أهوال الساعة ، وتقريباً لصورتها وأحوالها التي تسوء الكافرين المستعجلين بالعذاب وقيام الساعة ، فإن السياق يصوّرها وكأنها حاضرة للعيان والقلوب ، فيبغتهم بعذابها وهم بعدٍ في الدنيا :

«فلمّا رأوهُ زُلفةً سيئَتْ وجوهُ الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدّعون» .

---

(١) صفوة التفاسير : ٣/٤٢٠ .

قال الطبري : «فلمّا رأى هؤلاء المشركون عذاب الله زلفة : قريباً وعاينوه سيئت وجوه الذين كفروا : ساء الله بذلك وجوه الكافرين» (١) .

وبلاغة الآية الكريمة ترتكز على هذا الانتقال السريع المباغت المفاجىء للذين كفروا ، فهو ينقلهم فجأة من الدنيا إلى الآخرة لمواجهة ما كانوا به يكذّبون من العذاب الذي ينتظرهم ، فينقلب شكهم وارتيابهم بهذا العذاب إلى حقيقة ماثلة أمامهم يعاينوها بأبصارهم . فها هو العذاب الذي كانوا به يكذّبون في مشهد حاضر يبهتهم ، وقد صوّرت الكناية (سيئت وجوه) حالهم الذي هم فيه في ذلك الموقف بهذا الايجاز المكثف ، فالكناية دلالة بالغة عن آثار الاستياء الشديد التي ظهرت على وجوههم من الكآبة والغم والحزن ، قال الزمخشري : «سيئت وجوه الذين كفروا ، أي : ساءت رؤية الوعد وجوههم : بان عليها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة ، وكلحوا ، كما يكون وجه من يقاد إلى القتل أو يعرض على بعض العذاب» (٢) فالكناية (سيئت) تصوير مكثف لحالهم ، فهي موحية بمعان شتى عن موقفهم في ذلك اليوم . ويصعد سياق الآية من استيائهم بالتأنيب والتوبيخ والسخرية ، فقد كانوا في الدنيا يسخرون :

«وقيل هذا الذي كنتم به تدّعون»

أي «وقالت لهم الملائكة توبيخاً وتبكيتاً : هذا الذي كنتم تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه استهزاءاً وتكذيباً» (٣) . فالتعبير القرآني خبر خرج معناه مجازاً إلى التوبيخ والتبكيت .

وكان الكفار يتربصّون بالنبي — صلى الله عليه وسلم — ومن معه من المؤمنين أن يهلكوا فيستريحوا منهم حين دعاهم رسول الله إلى الله وخوّفهم عذابه (٤) ، فأمره الله أن يقول لهم :

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن : ٨/٢٩ .
(٢) الكشاف : ٤/ ٤٦٦ .
(٣) صفوة التفاسير : ٤٢١/٣ .
(٤) ينظر : التفسير الكبير : ٧٦/٣٠ .

«قل أرأيتُم إنْ اهلكنيَ اللهُ ومَنْ معيَ أو رحمنا فمَنْ يجيرُ الكافرين منْ عذاب اليم؟» .

والاستفهام في الآية : (فمن يجيرُ الكافرين من عذاب اليم) وسيلة فاعلة في التخويف ، وهو ما تهدف اليه الآية لتبعث في نفوس المخاطبين من الكفار حالة التدبر والتفكير في شأنهم ، والتراجع عن موقفهم الذي هم فيه . والاستفهام خرج معناه إلى الإنكار ، إنكار أن يكون للكافرين مجير من عذاب الله ، كما أن «وضع لفظ (الكافرين) عوضاً عن الضمير «يجيركم» تشنيع وتسجيل عليهم بالكفر» (١) ، فالتشنيع بالكفر يستفاد من أسلوب الآية التي وظّفت اسلوب التلميح الأكثر تأثيراً في النفس وأوقع ، فهو لم يواجههم بكفرهم صراحةً : «فمن يجيركم من عذاب اليم» وإنما قال : «فمن يجير الكافرين من عذاب اليم» وهذا الأسلوب ، فضلاً عن الاستفهام من شأنه أن يفعل فعله في النفوس المخاطبة ، إذ يبعث فيها التفكير والتأمل لإحداث الاستجابة النفسية التي يهدف اليها القرآن . فالتلويح والتلميح بالعذاب الذي ينتظر الكافرين اكثر إثارة وتأثيراً من اسلوب التصريح . وفي هذا يتجلى الأسلوب القرآني الحكيم بإعجازه في مخاطبة النفس الانسانية فالله الذي خلق النفس الإنسانية أعلم بها من حاملها ، ويعلم أي الأشياء ترغبها وتنجذب اليها ، وأيها مدعاة للنفور والرهبة ... فهو يخاطبها بما يثيرها إثارة روحية رفيعة ليحدث الإستجابة النفسية ، ومن ثَمّ تحقيق مقاصد القرآن وأهدافه .

ثم يبين السياق القرآني حال المؤمنين وثقتهم بربهم الرحمن وتوكلهم عليه ، مع توظيف السياق لأسلوب التهديد والوعيد بالكافرين الذين هم في العذاب والضلال المبين :

«قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين» التقديم والتأخير في .(وعليه توكلنا) يؤكد اطمئنان المؤمنين بايمانهم ،

---

(١) صفوة التفاسير : ٤٢١/٣ .

وتوكلهم على الله – سبحانه – دون غيره ، فقد أفاد تقديم مفعول (توكلنا) التخصيص ، فالتوكل لايكون إلا على الله وحده ، ولفظ (الرحمن) يشير إلى رحمة الله بهم . وأما تأخير مفعول آمنا فلنكتة بيانية تتمثل في التعريض بالكافرين ، وقد لحظ الزمخشري ذلك بقوله : « فإن قلت : لم أخّر مفعول آمنا وقدم مفعول توكلنا ؟ قلت : لوقوع آمنا تعريضاً بالكافرين حين ورد عقيب ذكرهم ، كأن قيل آمنا ولم نكفر كما كفرتم ، ثم قال : وعليه توكلنا خصوصاً لم نتكل على ماأنتم متكلون عليه من رجالكم وأموالكم » (١) . وقال الزركشي في هذا التقديم والتأخير في الاية ، تقديم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وتأخير (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) قوله : « الايمان لما لم يكن منحصراً في الايمان بالله بل لابد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الاخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه بخلاف التوكل فإنه لايكون إلا على الله وحده . لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن بأختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لايملك ضراً ولانفعاً فيتوكل »عليه(٢)

ثم تنتهي الاية بأسلوب التهديد والوعيد الملفوف :

«فستعلمون من هو في ضلال مبين» .

تخويفاً لهم وتهديداً من الكفر وعاقبته ، والاية لاتصرّح بضلالهم كذلك ، وإنما توصل المعنى على سبيل التلميح الأوقع في النفس تأثيراً وشدة ، وهو أسلوب حكيم من شأنه أن يحدث الأثر النفسي فيهم فيتفكروا ويتدبّروا في حالهم وموقفهم .

ثم تنتهي السورة الكريمة بآية هي غاية في حسن الختام ، لأنها تتصل بموضوع السورة الرئيس وغرضها العام ، وهو : بيان عظمة الله وقدرته

---

(١) الكشاف : ٤٦٧/٤ .

(٢) البرهان في علوم القرآن : ٤١٢/٢ .

على كل شيء ، وأنه بيده الملك يفعل مايشاء وكيفما يشاء ... ، كما تبين ضعف الإنسان وعجزه أمام مالك الملك الرحمن الرحيم :

« قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمَنْ يأتيكم بماء معين» .

والماء مصدر الحياة وبه تقوم ، ولو شاء الله لحرمهم هذا المصدر .

فالاية تقر في الضمير قدرة الله وإرادته المطلقتين ، وأنه بيده الملك ولتثبيت هذه الحقيقة في القلوب والنفوس يوظّف التعبير القرآني الأسلوب الاستفهامي (فمن يأتيكم بماء معين ؟) ليلفت الانتباه لفتا قوياً إلى نعمة الماء مصدر الحياة القريب للتأمل والتدبر ، ويعمّق المعنى في المتلقي الطباق بين الصورتين : صورة الماء وهو غائر في الأرض لايقدرون عليه (غوراً) ، وصورة الماء وهو فائض متدفق جار (معين) ، فهما صورتان متضادتان الاولى تشير إلى الهلاك والموت ، والثانية تشير إلى الحياة . وكلاهما (الموت والحياة) بيد الله ، لايقدر أحد أنْ يهبهما لأحد ، فهو خالقهما كما قررت السورة ذلك في بدايتها ، وكما أوحى بذلك أسلوب الأستفهام في الاية الذي خرج معناه إلى الأنكار ، إنكار أن يأتي بالماء المعين غير الله ربّ العالمين .

— الخاتمة والنتائج —

في نهاية البحث نسجل أهم النتائج التي تمخضت عنه ، ويمكن إجمالها بما هو آت :

— لاحظ البحث أن الظواهر البلاغية التي وردت في السورة الكريمة قد توزعت في نسيجها على نحو متفاوت حسبما يتطلبه السياق في أداء المعاني والأفكار التي قصد توصيلها إلى المخاطب ، إذ أن هذه الظواهر البلاغية هي ليست تجريدية تراد لذاتها ، وإنما هي تحتضن الأفكار والمعاني على نحو متناغم ، تتجلى الأفكار والمعاني من خلالها ذات ايحاء

وحيوية وقوة تأثير ، فهي جزء من بناء نص معجز له أهدافه الفكرية والنفسية والجمالية ، ويسعى إلى التوجيه والتسديد وبث اسمى الأفكار الإنسانية وأعلاها مرتبة .

- فعلى صعيد إثارة عقول المخاطبين ونفوسهم إثارة قوية ، لاحظ البحث أن أسلوب الاستفهام يرد في السورة على نحو لافت للنظر ، فهو قد شكل ظاهرة بلاغية بارزة ، وبخاصة الاستفهام الذي يخرج معناه مجازاً إلى (الإنكار والتعجيب) إنكار الأوهام والضلالات والمعتقدات التي عليها الكافرون والتعجيب منها . فكان الأسلوب الاستفهامي أداة حيوية فاعلة في الإثارة والتأثير ، فهو يمثل أصداء تحرك القلوب والعقول ليبعثها على التفكير والتدبر بما تقرره السورة من حقائق وتصورات جديدة على صعيد الكون والطبيعة والحياة ... فالاستفهام عمل بقوة على إطلاق العقل والحواس والبصيرة لتتأمل تلك الحقائق .. وتتدبر ...
- ولحظ البحث أن فن الطباق بأنواعه قد ورد في السورة على نحو لافت أيضاً ، وقد شكل هو الاخر ظاهرة بلاغية ملحوظة . والطباق من شأنه إبراز التناقض في المعاني ، والمعاني تتمايز بالتضاد فتكشف عن فنية الأسلوب وتجلي مستويات المعنى بأبعادها المختلفة ، فيعمل الطباق على خلق صور ذهنية ونفسية متعاكسة يوازن فيما بينها عقل القارىء ووجدانه فيتبين ماهو حسن منها ويفضله عن ضده ... فتترك في الشعور آثاراً عميقة بأسلوبها الموازن ، فكان الطباق أداة حيوية فاعلة في توكيد المعاني وترسيخها في المتلقي فيحقق التعبير القرآني هدفه ...
- لاحظ البحث وظيفة الاستعارة المكنية التي تمثلت في التشخيص . إذ يظهر التشخيص العبارة القرآنية وهي نابضة بعناصر الحياة من خلال تخيل الحياة في غير الأحياء ، وإضفاء الصفات الانسانية على

الموجودات فيزاح بذلك الغطاء المادي عن الجمادات فتكشف عن روحها فتتجاوب روح الانسان معها فيتعمق شعوره وإحساسه بهذه الموجودات كما رأينا ذلك مع تشخيص صورة جهنم – وهي من الموجودات غير المنظورة الان – فكانت صورتها بالتشخيص مؤثرة في النفس أبلغ تأثير . أو كما رأينا مع استعارة الدابة الذلول للأرض – وهي من الموجودات المنظورة – التي نعيش عليها .. فكانت صورتها بالتشخيص الذي بث الحياة والحركة فيها مؤثرة موحية بالمعاني التي لاتنضب ...

– أيقن البحث أن التعبير القرآني يوصل معانيه من خلال الظواهر البلاغية متواشجة مع الجمال . على صعيد واحد ، إذ الجمال في السورة مقصود ومرتبط بغاياتها ومقاصدها ، فهو وسيلة فاعلة لتحقيق اهداف القرآن ومقاصده وليس هو غرضاً بحد ذاته ...

هذه أهم النتائج وأميزها ، نرجو أن نكون قد وفقنا في تسجيلها وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

– المصادر والمراجع –

– **القرآن الكريم**

– **الاتقان في علوم القرآن** ، للسيوطي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة ، ط١ ، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

– **أسرار البلاغة** ، لعبدالقاهر الجرجاني ، تحقيق : هـ. ريتر ، مطبعة وزارة المعارف – استانبول ، ١٩٥٤ .

– **أساس البلاغة** ، للزمخشري ، تحقيق : عبدالرحيم محمود – إحياء المعاجم العربية ، ط١ ، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م بمصر .

– **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق** ، د. عائشة عبدالرحمن بنت الشاطىء – ، مطابع دار المعارف بمصر ١٩٧١م .

- البرهان في علوم القرآن ،للزركشي ،تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرفة ، ط٣ ، بيروت .
- البلاغة فنونها وأفنانها ـ علم المعاني ـ ، د. فضل حسن عباس ، دار الفرقان ، ط١ ، الأردن ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
- بلاغة الكلمة والجملة والجمل ، د. منير سلطان ، دار المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨٨ .
- البلاغة والتطبيق ، د. احمد مطلوب ود. حسن البصير ، مطابع جامعة الموصل ، ط١ ـ ١٩٨٢ .
- بيان إعجاز القرآن ،للخطابي ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ، ود. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ط٣ ، ١٩٧٦ .
- التعبير القرآني ، د.فاضل صالح السامرائي ،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، بغداد ١٩٨٩ .
- التفسير الكبير ، للفخر الرازي ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، د.ت .
- تلخيص البيان في مجازات القرآن ، للشريف الرضي ، تحقيق : محمد عبدالغني حسن ، دار إحياء الكتب العربية ، البابي الحلبي ، ط١ ، القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م .
- جامع البيان في تفسير القرآن ، للطبري ، ط١ ،المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣٢٩هـ .
- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب د. ماهر مهدي هلال ، الجمهورية العراقية . وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ (سلسلة دراسات رقم ١٩٥) .

- **الجمالية** ، ر.ف. جرنسون ، ترجمة : د. عبدالواحد لؤلؤة ، الجمهورية العراقية — وزارة الثقافة والفنون ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٧٨ (سلسلة الكتب المترجمة رقم ٥٣) .
- **حديث عن الجمال في الإسلام** ، د. عمادالدين خليل ، مطبعة منير — موصل ط١ ، ١٩٨٤ .
- **خصائص التركيب** — دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني — ، د. محمد أبو موسى ، دار التضامن للطباعة ، ط٢ ، ١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م .
- **دلالة الألفاظ** ، د. ابراهيم أنيس ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ط٢ ، القاهرة ١٩٦٣ .
- **سر الفصاحة** ، لابن سنان الخفاجي ، شرح وتصحيح : عبدالمتعال الصعيدي ، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣م .
- **صفوة التفاسير** ، لمحمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، ط٢ ، بيروت ١٩٨١ .
- **الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي** ، د.جابر احمد عصفور ، دار المعارف ، مطبعة القاهرة الجديدة ، القاهرة ١٩٧٧م .
- **الطراز المتضمن لاسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز** ، للعلوي ، مطبعة المقتطف — مصر ١٩١٤م .
- **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده** ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، ط٤ ، بيروت ١٩٧٢ .
- **الفاصلة في القرآن** ، محمد الحسناوي ، دار الأصيل للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٧٧ .
- **الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان** ، ابن قيم الجوزية ، القاهرة ، ١٣٢٧هـ .

- في البنية والدلالة — رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية — ، د. سعد أبو رضا ، الناشر : منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨٧ .
- كتاب الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق : محمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، ط١ ، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، للزمخشري ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ط٢ ، ١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م .
- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر لابن الاثير ، تحقيق : د. احمد الحوفي ود. بدوي طبانة ، مطبعة نهضة مصر ، ط١ ، ١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩م .
- مدخل إلى نظرية الأدب الاسلامي ، د. عمادالدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، ط١ ، بيروت ١٩٨٧ .
- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- مفتاح العلوم للسكاكي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط١ ، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م .
- في بلاغة القرآن ، احمد احمد بدوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٠ .
- النكت في إعجاز القرآن ، للرماني ، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، تحقيق : محمد خلف الله احمد ود. محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر ، ط٣ — ١٩٧٦م .

(المجلات)

- الجرس والايقاع في تعبير القرآن ، د. كاصد ياسر الزيدي ، مجلة آداب الرافدين (جامعة الموصل) العدد (٩) ايلول ١٩٧٨ .